أبو تمام فى مصر

للدكتور طه الحاجرى

١

قضى أبو تمام فترة حداثته فى مصر . وحداثة الرجل هى — فى حقيقة الأمر — الفترة التى تجتمع فيها معظم العوامل التى تعين وجهته ، وتطبع شخصيته ، وترسم الخطوط الكبرى فى منهج حياته . ففى هذه الفترة التى قضاها أبو تمام فى مصر شقت شاعريته سبيلها ، واختارت له مقاديره الوجهة التى جعل يتجه اليها ، وتكونت لشاعريته عناصرها الأول التى مالبثت أن نمت وامتدت وترعرعت وهيأت له ذلك المكان الرفيع الذى تبوأه بين شعراء القرن الثالث ، وذلك اللون الخاص الذى عرف به فى تاريخ الأدب العربى .

ومع هذه الخطورة الظاهرة التى تمتاز بها هذه الفترة من حياة أبى تمام فانها مضت مغمورة مطوية ، لا يكاد أحد يعنى بها أو يقف عندها ، ممن ترجموا له من علمائنا المتقدمين ؛ إذ لم تظفر منهم إلا بما قد يعد طرفه تبتعث الدهشة ، من أنه بدأ حياته فى مصر وهو يصطنع السقاية فى المسجد ، يلتمس بها عيشه ، ويقيم بها أوده . فيقول الخطيب البغدادى مثلا : «كان بمصر فى حداثته يسقى الماء فى المسجد الجامع ، ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلم منهم» (١)، ثم يجىء بعده ابن خلكان فلا يزيد على ترديد هذا الخبر ، إذ يقول : «ونشأ بمصر ، قيل أنه كان يسقى الناس ماء بالجرة فى جامع مصر»(٢)

---

(١) تاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨ ، ط القاهرة ، سنة ١٩٣١.

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٧

أما ما عدا ذلك من ألوان حياته بمصر ، وصنوف صلاته بها ، وما أتيح له فيها من مقومات كيانه ، وما تقلب عليه من أحداث وما عاناه من خطوب ، وما تعرض له فيها من تجارب نفسية ، فقد ذهب مطوياً فى الغمرات التى كانت تلف حياة شاعر ناشىء مثله ، فى إقليم بعيد عن مركز النشاط العلمى والأدبى كمصر .

وقد عرض لأبى تمام جماعة ممن عنوا بتاريخ الأدب العربى والتأليف فيه من علمائنا المعاصرين ، فمنهم من عرض له فى سياق كلامه عن تاريخ الأدب عامة ، أو تلك المرحلة التى تقع فيها حياة أبى تمام من ذلك التاريخ ، فكان من الطبيعى الا تجد العناية بأبى تمام فى مصر متسعاً لها فى ذلك الإجمال .

ومنهم من عرض له فى سياق دراسته لتاريخ الأدب العربى فى مصر كالدكتور محمد كامل حسين ، ولكنه — وان تلبث عنده برهه — لم يلبث أن مضى عنه معجلا ، لأن حياة أبى تمام فى مصر غامضة أشد الغموض ، إذ لم يصلنا عنه شىء كثير فى مصر ، ولا نعرف عمن أخذ علومه ، كما لا نعرف شيئاً عن اتصاله بأشراف مصر وشعرائهم » ، كما هو نص عبارته (١)

ومنهم من توفر عليه ، فأفرده بالدرس وخصه بكتاب على حدة ، كالأستاذ عمر فروخ فى كتابه عنه : «أبو تمام ،شاعر الخليفة محمد بن المعتصم بالله»(٢) والأستاذ نجيب محمد البهبيتى فى كتابه : «أبو تمام الطائى ،حياته وحياة شعره»(٣) ومن الطبيعى أن نتوقع فى مثل هذا النمط من التأليف أن نجد فيه لهذه الفترة ، فترة حياة أبى تمام فى مصر ، مكاناً خاصاً يتسع لتفصيل القول فيها ، إذ كانت جزءاً من حياته ، ومرحلة كبيرة الخطر بين مراحلها .

---

(١) فى الأدب المصرى الاسلامى من الفتح الاسلامى إلى دخول العثمانيين ، ص ١٩٢ . مطبعة الاعتماد بمصر .

(٢) طبع بمطبعة الكشاف ، فى بيروت ١٩٣٥ م .

(٣) طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ، فى القاهرة ، ١٩٤٥م

بيد أن هذين الكتابين الذين يمثلان هذا النمط يتفاوتان فيما بينهما تفاوتا كبيراً فى أسلوب التفكير ومنهج الدراسة ، وخاصة فيما يتعلق بالكلام عن أبى تمام فى مصر . فلم يكد صاحب كتاب «أبو تمام شاعر الخليفة...» يلم بهذه الفترة من حياة أبى تمام ، ويجمل القول اجمالا فى صلته بعياش بن لهيعه حتى يمضى عنها . فى حين وقف صاحب كتاب «أبو تمام الطائى» عندها وقفة طويلة بعض الشىء ، مقدراً مالها من خطر ، وأخذ فى وقفته هذه يردد النظر ويقابل بين وجوه الرأى ، ويستقرىء ألوان ثقافة أبى تمام ، كما يشير اليها شعره ، على اعتبار أن هذه الثقافة انما تكونت له فى مصر ، وأن تعرفها إنما يعد تعرفاً لهذه الفترة من حياته . وبذلك جاز لنا القول بأن الدكتور نجيب البهبيتى أول من اتجه إلى العناية بتجلية حياة أبى تمام فى مصر بغض النظر عن مبلغ ما أصاب فى ذلك من توفيق ، وما بلغه من مدى . فقد يبدو لنا انه لم يتقص شعر أبى تمام على الوجه الذى يمكن له من هذه التجلية بما يتفق مع مكانة هذه الفترة فى تاريخه وفى سيرته الشعرية . ولكنها — على كل حال — أول محاولة جدية من هذا القبيل ، فلها بذلك هذه الفضيلة ، وان جاءت مشوبة ببعض مظاهر النقص والاضطراب .

ونحن فى هذه الدراسة التى نقدمها اليوم ، والتى أردنا بها أن نسهم فى هذه الناحية ، نرجو أن يكون قد اتيح لنا من التوفر على تعرف حياة ابى تمام فى مصر ، ما يجعلها أدنى إلى الاحاطة ، وأقرب إلى ابراز صورة واضحة دقيقة لها ، وإلى تبين العوامل والملابسات المختلفة التى أحاطت بأبى تمام فيها ، وكان لها أثرها الكبير فى توجيه ملكاته الفنية وإنتاجه الشعرى هذه الوجهة التى نراها .

٢

متى قدم أبو تمام مصر ؟ ومتى رحل عنها ؟ أو بعبارة أخرى : ما هى حدود الفترة التى أقامها فيها ؟ .

هذه هى المسألة الأولى التى لابد من القضاء فيها قبل كل شىء . ولا سبيل إلى أن نبلغ من ذلك مقطع الحق أو ما هو أشبه به ، كما لا سبيل إلى تصوير

شيء من حياته فى هذه الفترة ، الا أن نعتمد على شعره ، نتقصاه جهد ما نملك ، ونستنبطه غاية ما نستطيع ، ونستلهمه فى بصيرة وحذر ، ونستخرج منه ما عسى أن يكون فيه من الأعلام الهادية المميزة ، نهدى بها فى هذا المجهل المبهم الغامض من حياته ، مع المقارنة بما عسى أن يكون هنالك من الأحداث التاريخية الملتبسة بهذا الشعر ، مما أتيح له أن يظفر بعناية المؤرخين الذين بلغتنا آثارهم .

ومن ذلك ما احتفظ لنا به أبو عمر الكندى فى كتابه عن قضاة مصر وولاتها ، فى سياق كلامه عن عبد الله بن طاهر وولايته مصر ، وما كان بينه وبين ابن السرى من أحداث ، سنة ٢١١ ، مما قاله شاعرنا أبو تمام فى مدح ابن طاهر ، والتنويه بتلك الموقعة التى انتصر فيها على خصمه ابن السرى . فلهذا — ولاريب — دلالته القاطعة على أن ابا تمام كان بمصر فى ذلك الوقت ، سنة ٢١١ .

ومن ذلك أيضاً ما احتفظ به ديوان أبى تمام الذى بين أيدينا من الشعر الذى قاله فى رثاء عمير بن الوليد . فاذا علمنا أن عميرا هذا قتل سنة ٢١٤ ، كان فى ذلك ما يدلنا على أن أبا تمام ظل فى مصر إلى هذا العام .

ولكنا لا نلبث حتى نجد مصر مذكورة فى قصيدة أخرى له قالها فى مدح المأمون ، مما يرجح لدينا أنه قالها وهو لا يزال مقيما فى مصر ، وذلك إذ يقول فيها :

أهلا وسهلا بالامام ومرحباً ، سهلت حزونة كل أمر قردد
متجرداً ثبت المواطن ، عزمه متجرد للحـــادث المتجرد
فانتاش مصر من اللتيا والتى بتجـــاوز وتاطـ وتغمد

فلعله إنما كان يشير بذلك إلى تلك الفتن المتصلة التى كانت مصر تضطرب بها فى ذلك الوقت ، والتى حفزت الخليفة المأمون إلى أن يمضى بنفسه اليها ،

لمعالجتها واطفاء نائرتها ، سنة ٢١٧ . فاذا صح ذلك ، وهو — فيما يبدو لنا صحيح — كان لنا أن نذهب إلى القول بان أبا تمام ظل فى مصر إلى هذه السنة سنة ٢١٧ ، وإذ رأينا أنه كان فيها منذ سنة ٢١١ ، كان لنا أن نذهب إلى القول أيضاً بان اقامته بها لم تكن أقل من ستة أعوام (١) .

وذلك هو ما يمكن أن يؤديه إلينا شعر ابى تمام فى هذه المسألة ، مقارناً بما اتيح له أن يبلغنا من الأحداث التاريخية المتصلة به .

أما صاحب «أبو تمام شاعر الخليفة...» فقد ذهب فى ذلك إلى افتراض ذهابه إلى مصر فيما بين سنتى ٢٠٨ ، ٢٠٩ . ولكنه — إذ يقرر ذلك — يرسله إرسالا ، دون رواية تسنده ، أو دليل يعتمد عليه ، أو شبهة تذكر معه . فهو اذن فرض تحكمى ، لا علينا أن نتجاوزه دون مناقشة .

وأما صاحب «أبو تمام الطائى» فقد ذهب فى ذلك مذهباً طريفاً يختلف كل الاختلاف مع ما ذكرنا ، إذ يجعل مقام ابى تمام فى مصر فى فترتين ويجعل مقدمه اليها مرتين ، أولاهما حول سنة ١٩٥ حتى سنة ١٩٨ ؛ وقد اتصل — عنده — فى هذه الفترة بعياش بن لهيعه الحضرمى ، والأخرى سنة ٢١١ وقد اتصل فيها بعبد الله بن طاهر ، ثم بعمير بن الوليد ، حتى غادرها أخيراً إلى العراق بعد مقتل عمير ، سنة ٢١٤ .

ويحس الأستاذ الهيبتى ، حين يذهب هذا المذهب الطريف فى بيان اتصال ابى تمام بمصر ، بما فى ذلك من تجانف عن المقرر ومخالفة للمعروف فيقول فى سياق تقريره له : «وليس فى التاريخ ذكر لمقدم أبى تمام» ،

---

(١) يشير أبو تمام فى احدى قصائده التى يشكو فيها عيشه فى مصر ، إلى أن اقامته بلغت خمس سنين ، وذلك إذ يقول :

أخمسة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان ثكل من الثكل (الديوان ص ٣٥٩)

على أنه ليس فى القصيدة كلها مايدل على أنه قالها وهو مرتحل من مصر . فليس فى هذا البيت دليل أو شبه دليل على أن مقامة فى مصر كان خمسة أعوام لا أكثر ، وانما سلخ مايدل عليه هذا البيت أن مقامة فيها لم يكن أقل من خمسة أعوام .

أن ننظر فى هذه الضرورات التى اعتبرها فى ذلك الفرض ، ورسم عليها ذلك النسق ، لنرى مبلغ ما يمكن أن نصل اليه من ذلك .

أما أن أبا تمام كان فى مصر سنة ٢١١ أو ٢١٠ يمدح عبد الله بن طاهر ، فهذا ما لا ريب فيه عندنا . وكذلك القول بانه اتصل بعياش بن لهيعه فيها ، فهذا ما لا نحسب أحداً يملك انكاره أو المجادلة فيه . وأما أن اتصاله بعياش ابن لهيعه هذا وامتداحه له يمكن إلا أن يكون قبل سنة ٢٠١ ، وهى السنة التى تولى فيها الشرطه ، واختفى بعدها من التاريخ ، على حد تعبيره ، فمسألة فيها نظر . ذلك أن اختفاء عياش من التاريخ لا يعنى مطلقاً اختفاءه من الحياة ، حتى ما يجوز لحى أن يتصل به ، كما لا يعنى تجرده من كل شىء من الجاه ، حتى ما ينبغى لشاعر أن يقصده . وإذا جازلنا أن نثق بالتاريخ واستقصاءه للدقائق واحاطته بالتفاصيل — وما نرى ان ذلك مما يجوز فى أى حال من الأحوال — فما ينبغى أن نحمل اختفاء عياش من التاريخ على أكثر مما نحتمل ، فهو لا يدل على أكثر من ابتعاده عن الحياة الرسمية التى يعنى المؤرخون بحفظها وتسجيلها والتنويه بها ، إذ لم يعد له فى مناصب الدولة مكان ملحوظ .

على أن الأستاذ البهبيتى يجد نفسه مضطراً (خضوعاً للنسق الذى رسمه ، وإن ظهر أنه متهافت وعرضه للخلل فى غير موضع منه) إلى أن يجعل اتصال ابى تمام بعياش بن لهيعة قبل أن يلى الشرطه فى سنة ٢٠١ ، إذ كان ذلك يقضى بان يترك أبو تمام مصر فى سنة ١٩٨ ، كما رأينا منذ قليل ، واذن فولاية عياش للشرطة لا دخل لها — كما يرى هنا — فى صلة ابى تمام به وامتداحه له (١) . فاذا كان الأمر كذلك فأى ضرورة تلزمنا أن نجعل

---

(١) ومع هذا فإنا نلمح فى كلام الأستاذ عن هذه المسألة شيئا من الاضطراب أيضا ، كما رأيت ذلك فيما سبق . فبينما يقرر هنا (ص ٦١) أن ابا تمام اتصل بعياش بن لهيعة قبل سنة ٢٠١ نراه يخالف ذلك الرأى فى موضع آخر ، فيقول فى (ص ٥٩) « وأغلب ظنى ان ابا تمام اتصل به فى ولايته للشرطة لابطحا . وفى شعره مايشعر أنه كان كذلك أيام اتصال أبى تمام به . يقول :

يحوجك أن تلقاه صدراً لمحفل ... وغمراً لأعداء وقلباً لموكب »

اتصاله به فى هذه الفترة المفترضة افتراضاً دون الفترة الثانية ؟ إذا كنا لا نملك القطع بان الرجل مات قبل مقدم ابى تمام مصر سنة ٢١١ أو ٢١٠ ، وكنا مع هذا لا نرتب مدح ابى تمام له على أنه كان يتولى منصباً من مناصب الدولة ، فلم تعد هناك ضرورة تلجىء الباحث إلى ذلك الفرض ، وتحمله على التزام مثل هذا التاريخ . وبذلك تكون هذه الضرورة من الضرورات التى انبنى عليها ذلك المذهب واهية باطلة لا حقيقة لها .

فهذه واحدة . وأما اتصاله بأبى المغيث موسى بن ابرهيم الرافقى ومحمد بن حسان الضبى ، وقد زعم انه اتصل بالأول بعد خروجه من مصر إلى الشام سنة ١٩٨ ، واتصل بالثانى بعد أن ترك الشام إلى الرقة ، فليس فى شىء منهما شبهة تلزم الباحث تاريخاً معيناً . ومازعمه من ذلك ليس الا فرضاً مجرداً ، لا ضرورة تحمل عليه أو تلجىء اليه ، فلا يمكن أن يستند اليه فى فرض آخر . وعندنا أن اتصال ابى تمام بأبى المغيث الرافقى كان بعد خروجه من مصر سنة ٢١٧ إلى الشام ، وربما كانت نشأة هذه الصلة قبل ذلك وهما فى مصر ، كما قد تعرض لذلك فى موضع آخر من هذا البحث. وأما امتداحه اياه فانما كان — على كل حال — وهما بالشام . وكذلك نرى أن اتصاله بمحمد بن حسان انما كان فى أثناء ولايته الطويلة بالجزيرة ، وقد تولى مظالم الجزيرة ووقنسرين والعواصم والثغور سنة ٢١٥ ، وولاه المعتصم مظالم الرقة سنة ٢٢٤ ، وأقره الواثق عليها .

ومثل هذا اتصال ابى تمام بمالك بن طوق ، وقد افترض الأستاذ البهبتى سنة ٢٠٠ تاريخاً له ، إذ مدحه بقصيدته البائية التى أشار فيها إلى ما كان من فتنة بين بنى تغلب وبنى أسامة بن بكر ، وقد زعم أن هذه الفتنة انما هى التى اشار ابن الاثير اليها فى حوادث سنة ٢٠٠ ، فاذا صح ذلك فلا بد أن يكون ذلك هو تاريخ القصيدة ، وتاريخ اتصال ابى تمام بمالك ابن طوق ، ولكن كيف يمكن القطع بان ما أشار اليه أبو تمام فى قصيدته هو نفسه ما ذكره ابن الأثير فى حوادث تلك السنة ؟ ولم يفت صاحب ذلك

القول أن نحس بما فيه من تحكم لا سند له ، فقال معقباً عليه: «وقد يعترض على هذا ، بأنه ليس لنا أن نقطع بان ابن الأثير قد ذكر كل الفتن التي حدثت في تلك الأيام ، وليس ما يمنع أن تتكرر الفتنة بين جماعتين بعينهما في ازمنة تتباعد ، فيأتي ابن الأثير فيذكر واحدة لاصيتها ، ويترك الباقي ثم يأتي أبو تمام فيذكر الأخرى لاتصالها بممدوحه، فيلتبس التاريخ بالشعر بما يثير في الظن انهما عن حادثة واحدة ، وليس ذلك صحيحاً ، وهذا — كما نرى — اعتراض واضح قوي ، يمليه منهج علمي سديد . ولكنه لا يكاد يفرغ من تقريره، حتى يذكر النسق الذي وضعه لحياة ابي تمام، فيغلبه حرصه عليه وافتتانه به ، فاذا هو يسرع في رد هذا الاعتراض بقوله : «هذا حق ولكن ليس فيه ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة ، فهو احتمال لا أذهب إلى القطع به» (١) . وليس في هذا ما يدحض ذلك الاعتراض ولا قيمة للقول بان ليس فيه ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة ، فما على هذا بني القول فيه ، وانما يكفي ان يقال انه ليس هنالك ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في هذه الفتنة أو في غيرها ، ليبطل الاستدلال بها ، والاستناد اليها في ادعاء ذلك التاريخ لها .

وإذن فالقول بان اتصال ابي تمام بمالك بن طوق كان في سنة ٢٠٠ قول لا دليل عليه ولا سند له ، وبذلك لا يصلح «وأيضاً أن يكون نقطة ارتكاز في رسم ذلك النسق .

ومثل هذا أيضاً ما ذكره عن علي بن مر ، وافتراضه ان صلة ابي تمام به نشأت بينهما في اذربيجان ، في ابان ثورته على الدولة ، بعد قتل الأمين . وكان هذا في حساب ذلك النسق بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٠٠ ، كما رأينا فيما نقلناه عنه في هذا الفصل .

---

(١) أبو تمام الطائي ص ٥٢ ، ٥٣ .

وفى موضع آخر ذكر صاحب «أبو تمام الطائى» على بن مر ، وصلة ابى تمام به ، بهذه العبارات : « وفى سنة ١٩٨ أيضاً يقتل الأمين ، وتزلزل أرجاء العالم الاسلامى بفتن كانت تلتهمه كالنار ، فيخرج بكل قطر من استطاع أن يخرج به .. ومن بين الخارجين بأذربيجان ، على بن مر ممدوح ابى تمام وصديقه ؛ ولكن لم تلبث اذربيجان أن اعيدت إلى حظيرة الخلافة ولاشك فى أن على بن مر هذا كان مغضوباً عليه إذ ذاك من الخليفة . ويظهر انه رضى عنه بعد ذلك فى زمن لا نعرفه» . ثم يشير بعد ذلك إلى القصيدة النونية التى مدح أبو تمام بها على بن مر ، وما جاء بها من اشارات إلى رضا الخليفة عنه ، واستخدامه اياه فى قمع بعض الفتن ، كما يذكر أن صلة أبى تمام به ترجع إلى أيام جفوة السلطان له ، كما قد تدل على ذلك هذه الأبيات من تلك القصيدة :

لى حرمة بك ، فاحفظها وجازيها ... يا حافظ العهد والعواد بالمنن

أولى البرية حقاً أن تراعيه ... عند السرور الذى آتاك فى الحزن

ان الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم فى المنزل الخشن (١)

هذا ما أورده الأستاذ البهبيتى فى أمر هذه الصلة ، مما كنا نرجو أن نجد فيه تفسيراً لما ذكره فى نسق حياة أبى تمام من أن صلته بعلى بن مر كانت فى ذلك التاريخ ، فاذا به لا يتضمن شيئاً يمكن أن يكون دليلا أو شبه دليل على ذلك . وانما مبلغ ما يمكن أن يقال — إذا صح ان ابا تمام يشير بتلك الأبيات إلى فترة الجفوة — انه كان على اتصال به فى اثنائها ، وإذ كانت هذه الفترة مجهولة الغاية كما يصرح هو بذلك ، فكيف يمكن أن يستند اليها فى افتراض وقت معين لحدوث هذه الصلة ليجعل من ذلك نقطة من النقط التى تحدد النسق العام لحياة ابى تمام .

وهكذا تسقط أيضاً هذه الجزئية من جزئيات ذلك النسق .

---

(١) ص ٥٢ .

بقي بعد ذلك من الشبه التي اعتبرها الأستاذ البهبيتي ، ورسم عليها ذلك النسق ، وبنى عليها ذلك المذهب ، ما جاء في ديوان ابي تمام من مدح الحسن بن سهل وزير المأمون . ووجه الشبهة عنده «ان حادثاً حدث في تاريخ الحسن بن سهل يجعلنا نرجح أن مدائح ابي تمام فيه كانت قبل سنة ٢٠٣ ففي هذه السنة يروى لنا الطبري وابن الأثير ان الحسن قد أصيب بالسوداء إصابة شديدة ، حتى إنه وضع في الحديد وحبس» (١) .

وهذه شبهة غريبة لا تدري كيف استطاعت أن تتأتى له وتعترضه . إذ كيف تحملنا إصابة الحسن بن سهل بالسوداء سنة ٢٠٣ على الذهاب إلى القول بان مدح ابي تمام اياه انما كان قبل هذه السنة لا بعدها ؟ ذلك شيء لا يمكن تصوره الا أن نفترض مع هذه الاصابة التي نزلت بالحسن انه بقي محبوساً موثقاً في الحديد محبوساً في محبسه ثلاثة وثلاثين عاماً متصلة ، منذ أصيب في بغداد ذلك العام إلى أن مات في سرخس سنة ٢٣٦ . فهل نملك هذا الفرض ليصح ذلك الزعم ؟

هذا شيء لا سبيل اليه . فما أكثر ما نرى الحسن بن سهل في هذه الفترة بريئا من تلك الصورة التي اداها المؤرخون عنه في سنة ٢٠٣ . فهو مرة في مجلس الخليفة المأمون ، يشفع لديه في ابرهيم بن المهدي ، ومرة أخرى يستمع معه إلى غنائه ، إلى غير ذلك من الصور التي تمثله لنا وقد برىء من تلك النوبة الطارئة ، وان لم تعد أعصابه تحتمل مكاره الحكم ومشاق الولاية . ولعل من الصور التي لا تغيب عن خيالنا صورته في فم الصلح ، سنة ٢١٠ يشهد زفاف ابنته بوران إلى الخليفة المأمون ، ويشارك في إعداد مظاهر الفرح والبهجة ، ومجلس للشعراء الوافدين عليه ، يستمع إلى مدائحهم ، ويطرب لنشائهم ، ويغدق الجوائز لهم . فكيف يستقيم مع هذا أن نجعل سنة ٢٠٣ نهاية لحياته الحرة المختارة ، حتى ما يملك شاعر أن يقصده بمدحة ، أو يرجو عنده عطاء ، ثم نمضي فنحجر على أنفسنا واسعاً ، إذ نأبى الا أن يكون مدح

---

(١) ص ٥١ ، وانظر أيضاً : ص ٩٧ .

ابى تمام له قبل هذا التاريخ ، ثم نتخذ من ذلك أساساً لتعيين المراحل المختلفة التى مرت بها حياة ذلك الشاعر ؟

وبعد ، فهذه هى الضرورات التى أقام عليها صاحب «أبو تمام الطائى» نسقه ، والتى جعلته يعدل عن المعروف المألوف والأصل المقرر فى مجىء أبى تمام إلى مصر ، وذهبت به إلى أن يتكلف ألواناً من التكلف فى تقسيم شعره فيها إلى طائفتين يفصل بينهما عهد طويل مملوء بالتجارب المختلفة ، وقد كان جديرا بذلك لو صح أن يكون له أثره فى التطور الفنى لذلك الشعر وأن يكون ذلك الأثر ظاهراً قوياً لاخفاء فيه ، ولا اختلاف عليه ، فقد تهاوت هذه الضرورات كلها واحدة إثر الأخرى ، وبقى الأصل المقرر قائماً لا شىء يريبنا فيه أو يعدل بنا عنه ، وهو أن أبا تمام أقام فى مصر اقامة واحدة متصلة منذ دخلها إلى أن تركها ، على النحو الذى رأيناه .

وبهذا ، وبما رجح لدينا من أن مولد ابى تمام كان فى سنة ١٩٢ ، يستقيم القول فى هذا البيت من شعره الذى اشرنا اليه قبل ، وهو :

وان الذى أحدانى الشيب للذى رأيت ولم تكمل لى السبع والعشر

بعد أن اضطرب طويلا بين الفروض والتحلات المختلفة يضرب بعضها بعضاً (١) . كما رأينا صورة من ذلك ، إذ كان لا ريب فى أن هذه القصيدة التى جاء فيها هذا البيت هى احدى قصائده المصرية الصريحة النسبة . وقد صرح هو بذلك فيها ، إذ يقول :

وان نكيرا أن يضيق بمن له عشيرة مثلى أو وسيلته مصر

غير انى أميل ميلا شديداً إلى القول بان كلمة «السبع» فى ذلك البيت محرفة عن كلمة «التسع» ، وذلك تحريف قريب شائع مفهوم الأسباب ، وبذلك تكون سنه عند قول هذه القصيدة تسعة عشر عاماً ، فيكون تاريخها

(١) انظر : أبو تمام الطائى ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٤ .

على هذا سنة ٢١١ ، وذلك يتفق تماماً مع تاريخ وجوده فى مصر ، على القول الذى ذهبنا اليه .

على أن هناك اعتراضاً آخر أحسب انه — لابد — موجه إلى ، ومعترض به على . فلنعرض له ، قبل أن نفرغ من هذا الجزء من البحث .

٣

ما بال تلك القصائد الرائعة التى قالها أبو تمام فى رثاء محمد بن حميد واحتفظ لنا ديوانه بها ؟ ان كتب التاريخ تجمع على جعل مقتل محمد بن حميد هذا فى سنة ٢١٤ ، فاذا صحت الدعوى أن أبا تمام كان فى مصر حتى سنة ٢١٧ فكيف يمكن أن يتفق هذا مع ما ثبت من رثائه محمد بن حميد ، الا إذا أمكن القول بأنه إنما رثاه وهو فى مصر — وقد قتل محمد بن حميد فى اذربيجان — ووجه قصائده فيه منها ، وذلك أمر بعيد الاحتمال جداً ؟ الا يدعو هذا إلى القول بان أبا تمام كان قد ترك مصر قبل ذلك ، وانه فى الوقت الذى قتل فيه محمد بن حميد كان فى اقليم شديد الاتصال بمثل تلك الأحداث ، كالعراق مثلا ، كما يذهب إلى ذلك صاحب «أبو تمام الطائى» فى صورة جازمة قاطعة ؟ (١)

وهذا الاعتراض يبدو — كما نرى — قوياً مضحاً ، لولا أن هناك من الأمور الملابسة ما يثير التساؤل :

لقد رثى أبو تمام عمير بن الوليد بقصيدتين لا شك فى أنه قالهما وهو فى مصر (٢) ، وفى ثانى القصيدتين يمدح ابنه محمداً الذى جعلت اليه ولاية مصر بعد أبيه ، وان لم تطل هذه الولاية له أكثر من شهر واحد ، وكما انه لم يداخلنا الشك فى المكان الذى صدرت عنه هاتان القصيدتان ، وهو مصر كذلك لا يداخلنا الشك فى الزمان الذى قيلتا فيه ، إذ كان مقتل عمير بن الوليد معروفاً معيناً تعييناً دقيقاً ، وهو — كما يقول الكندى — يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر (٣) . وإلى جانب ذلك يبدو أن أبا تمام لم يكن وقت

---

(١) ص ٥٢ . وانظر أيضاً : ص ١٠٣ .

(٢) ديوان أبى تمام ، ص ٣١٢ ، ٣٣٥ ، مطبعة حجازى بالقاهرة ، ١٩٤٢ .

(٣) يعنى من سنة ٢١٤ ، أنظر : الولاة والقضاة ، ص ١٨ ط ليبسك ، ١٩٢٥م

ذلك الحادث على نية الرحيل عن مصر ، فليس فى شعره ما يمكن أن نلمح من خلاله مثل هذه النية . بل لعلنا نرى فيه — على نحو ما — ما قد يشير إلى نية استمرار الاقامة ، فى نحو قوله :

فلأشغلن بمدح ذا وبندب ذا ابدا لسانى ما ملكت لسانى

فى ذلك الوقت الذى كان أبو تمام فيه قارأ بمصر ، مطمئناً إلى مقامه فيها غير مزعج بالرحيل عنها ، كان محمد بن حميد الطائى قد استشهد فى المعركة التى شنتها الدولة على بابك الخرمى ، فى هشتاديا ذاردشير باذربيجان ، لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول (١) ، (أى قبل مقتل عمير بن الوليد بثمانية عشر يوماً) .

فنحن إذن بازاء مشكلة تتوقف الاجابة على ذلك السؤال الذى صدر به الاعتراض على حلها والقضاء فيها ، إذ كان من المحال أن يكون الرجل فى مصر والعراق فى وقت معاً .

هذا هو ما يبدو للباحث لأول وهلة حين يواجه ذلك الاعتراض ويأخذ فى تحويله ، فليس الأمر إذن من اليسر والقرب كما يتوهم المعترض .

فهل يمكن القول بان أبا تمام رثى محمد بن حميد وهو فى مصر ، أو أنه رثى عمير بن الوليد وهو فى العراق ؟ كلا الفرضين بعيد لا دليل عليه ، والفرض الثانى أشد فى البعد اغراقاً ، كما قدمنا

أيمكن القول بان مراثيه فى محمد بن حميد زائفة لتصح مراثيه فى عمير بن الوليد ، أو أن مراثيه فى عمير غير صحيحة النسبة لتصح مراثيه فى محمد بن حميد ؟ كلا الفرضين كذلك بعيد بعداً شديداً فليس لواحد منهما سند يسنده أو شبهة تزجيه .

وأخيراً ، أيمكن أن يكون عمير بن الوليد الذى يرثيه أبو تمام بذلك الشعر رجلا آخر غير عمير بن الوليد المقتول فى تلك الموقعة ، سنة ٢١٤ ،

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٠ ط الحسينية ، القاهرة .

أم يكون محمد بن حميد المذكور اسمه فى باب المراثى من ديوان أبى تمام شخصاً آخر غير ذلك الذى يذكر فى حرب بابك ، فى تلك القصة التى يحكيها المؤرخون ؟

أما أن عمير بن الوليد الذى يرثيه أبو تمام رجل آخر غير الذى نعرفه فى مصر ، ففرض لا سند له . وفضلا عن اننا لا نعرف فى ما وقع لنا من نصوص أو أخبار رجلا آخر بهذا الاسم ، فاننا نجد أبا تمام يشير إلى مقتله على النحو الذى يرويه المؤرخون فيه ، حتى إنه ليذكر فى رثائه له اليوم الذى يذكرون أنه قتل فيه ، وهو — كما رأينا فيما نقلنا قبل عن الكندى — يوم الثلاثاء . وذلك اذ يقول :

فيايوم الثلاثاء اصطبحنا غداة منك حافلة الورود

وهكذا لا يبقى من الفروض التى افترضناها لحل تلك المشكلة الا أن يكون محمد بن حميد الذى يرثيه أبو تمام شخصاً آخر غير محمد بن حميد الذى قتله بابك سنة ٢١٤ ؛ فاذا عسى أن يكون نصيب هذا الفرض الذى نعرف مبلغ خطره ، إذ لم يبق لنا من الفروض فى هذه المسألة غيره ؟

على أنه ينبغى لنا — ونحن ننظر فى هذه المسألة — أن نتجرد من التأثر بما قرره فى ذلك بعض المؤرخين والأدباء كابن الأثير والبديعى ، حين ربطوا بين مقتل محمد بن حميد شهيد حرب بابك وبين مرثيه ابى تمام ؛ ففسروا هذه بتلك ، واستشهدوا بها ، فلعل الأمر لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام الكثيرة التى تعرض لها المتقدمون ، ثم اندفع من بعدهم فى سبيلهم متأثرين بهم ، فى غير تحر أو تمحيص .

ونحن إذ ندرس المسألة مستقلين نلاحظ أول ما نلاحظ أنه كان هنالك فى ذلك العصر غير واحد ، يسمى كل منهم «محمد بن حميد» . فهنالك

---

(١) ديوان ابى تمام ، ص ٣٢٥ . وانظر فى ذلك أيضاً سائر مراثيه فى بنى حميد .

محمد بن حميد الذى يذكره الطبرى وابن الأثير فى حرب بابك ، من غير تكنية ، وهناك محمد بن حميد ، أبو نصر ، الذى يرثيه أبو تمام ، ويصرح فى بعض مراثيه اياه باسمه وكنيته ، إذ يقول مثلا :

كفى ، فقتل محمد لى شاهد ان العزيز مع القضاء ذليل
انسى ابا نصر ؟ نسيت إذن يدى فى حيث ينتصر الفتى ويذيل

وهناك محمد بن حميد ، أبو نهشل ، ممدوح البحترى ، وهو يذكره باسمه فى مثل قوله (١) :

والى سراة بنى حميد ، انهم أمسوا كواكب مذحج ابنة مذحج
سادوا وسادهم الأغر محمد بخلال ابلغ فى المزاهر ابلج

وفى شعر أبى تمام نفسه ما يدل على تعدد المسمين بمحمد بن حميد ، إذ يقول فى احدى قصائد الرثاء هذه :

اضحت عراص محمد ومحمد وأخيهما وكأنهن طلول (٢)

وإذن فقد كان هناك فى عصر واحد غير واحد يدعى كل منهم ومحمد بن حميد ، وذلك وحده كاف لاسقاط القطع بان محمد بن حميد صاحب أبى تمام هو محمد بن حميد المقتول فى حرب بابك ، لا غيره ، إذا لم يكن ثمت ما يعتمد عليه الادعاء الا توافق الاسم ، فقد أصبح ذلك التوافق بعد ما رأينا لا يعنى شيئاً . فلابد لذلك الادعاء من دليل آخر . فهل نجد فى شعر أبى تمام الذى قاله فى رثاء محمد بن حميد ما يمكن أن يدل على أن مرثيه هو محمد بن حميد المقتول سنة ٢١٤ ؟

أما أنا فلم أجد شيئاً من هذا أو قريباً منه . وانما لاحظت أمراً جديراً بالاعتبار فى هذه المسألة :

---

(١) ديوان البحترى ١ : ١٠١ ط هنديه وانظر أيضاً : معجم الشعراء للمرزبانى ، ص ٤٢٧
(٢) الديوان ، ص ٣٢٦

ذلك هو أن ابا تمام الذى استطاع الى حد بعيد أن يطوع عبارته الشعرية ايما تطويع ، وأن يجعل شعره متسعاً للأسماء الأعجمية ، مثل اليذ وأرشق وابرشتويم وسندبايا ، وما إلى ذلك من أسماء المواقع المختلفة التى دارت فيها الحرب بين بابك والمسلمين ، دون أن ينبوعنها أو يضيق بغرابتها ، وكأنما أراد أن يستغل ما كانت هذه الأسماء تثيره فى النفوس من مشاعر خاصة صادرة عن هذه الحروب ومتصلة بها ، وما كان ينبعث عنها من ظلال معنوية كبيرة الدلالة قوية الأثر ، ليحقق لشعره الحيوية الفنية بوضع هذه الأسماء فى مواضعها من شعره ، أبو تمام هذا الذى نعرف عن شاعريته هذا الحس الدقيق الذى يدفعه فى ذلك الاتجاه . لم يكن من المتوقع أن يغفل ، وهو يرثى شهيداً فى موقعة من هذه المواقع ، ذلك اللون من ألوان التعبير الشعرى ، وذلك النحو من انحاء التأثير الفنى ، فيخلى شعره من بعض هذه الأسماء ، بل ويترك تسمية اليوم الذى أصيب فيه محمد بن حميد.

ولكن هذا الذى لا يتوقعه الباحث هو ما نراه هنا فى الشعر الذى صاغه أبو تمام فى رثاء محمد بن حميد ، إذ لا نجد فيه اشارة ما إلى بابك أو اذربيجان أو أى اسم من هذه الأسماء التى كانت لها فى نفوس المسلمين ظلالها الملازمة لها ، ومشاعرها الخاصة بها ، بل لا نجد أيضاً ما يمكن أن يكون اشارة إلى شىء من طبيعة هذه المواقع التى حدثت فيها الحرب بين الدولة وبابك فى حين أننا نجد أبا تمام نفسه فى موضع آخر من شعره ، فى سياق مدحه لأحد الحميديين ، وهو أصرم بن حميد ، يذكر محمد بن حميد شهيد معركة بابك ، فيسمى تلك المعركة التى استشهد فيها «يوم بابك» ، وذلك إذ يقول (١)

بنى حميد ، الله فضلكم ابقى لكم اصرما فأسعدكم
لو كان فى «يوم بابك» لكم لم تفقدوا فى اللقاء سيدكم

---

(١) الديوان ، ص ٢٢٤ .

أما فى رثاء الشهيد نفسه فتمضى هذه الشاعرية عمياء صماء ، ليس لها أدنى حس بما يضطرب به الجو حولها انما اضطراب ، وما تدوى به نفوس المسلمين عن هذه الأحداث التى قتل فيها ذلك القائد . امكن أن يكون هذا ؟ أليس فى هذه المفارقة ما يثير التساؤل ، وما يجب أن يحملنا على مراجعة أنفسنا فيما تلقيناه قضية مسلمة عن محمد بن حميد هذا صاحب ابى تمام ؟

والواقع أن جو هذه القصائد ، قصائد أبى تمام فى محمد بن حميد ، بعيد كل البعد عن اذربيجان وحرب بابك ، أما إذا أردنا أن نتلمس فيها شيئاً من الاشارة إلى الناحية التى قتل بها محمد بن حميد ، وجدنا مثل هذا البيت :

مصيف اقاض الحزن فيه جداولا من الدمع حتى خاله صار مربعاً (١)

وإذن فمقتل محمد بن حميد انما كان فى ناحية تعتبر مصيفاً ، وما نحسب أن أذربيجان كانت من ذلك فى شئ ، إنما كان ذلك عند أهل العراق والجزيرة هو اقليم الجبل فى الشرق ، وبعض جهات الشام فى الغرب . فهذه الأشاره الى المصيف تبعد بنا — فيما نرى — بعدا كبيرا عن حروب بابك وميدانها ، وتحصرنا — فيما نحسب — فى هاتين المنطقتين المتاخمتين للعراق والجزيرة .

ولعلنا نستطيع أن نجد تفسير هذه الاشارة وتحرير المراد بها ، فى كلمة «النباج» التى ترد فى غير موضع من هذه المراثى ، كقوله :

بأبى وغير أبى — وذاك قليل — ثاو عليه ثرى النباج مهيل (٢)

والتى يسمى بها المعركة التى قتل فيها ، إذ يطلق عليها «يوم النباج» ، كما يطلق على المعركة التى قتل فيها سميه المستشهد فى حروب بابك «يوم بابك» ، كما رأينا منذ قليل ، فيقول :

«يوم النباج» ! لقد ابقيت باتجة احشاءنا أبداً من ذكرها قطع (٣)

---

(١) الديوان ، ص ٣٢٤

(٢) الديوان ، ص ٣٢٤ .

(٣) الديوان ، ص ٣٢٢

ومهما يختلف اطلاق كلمة «النباج» على غير موضع فى بلاد نجد واليمامة والشام ، كما تذكر كتب البلدان ، فانها جميعاً مواضع عربية لا صلة بينها وبين اذربيجان ، فليس واحد منها من اذربيجان فى شىء .

وإذ سبقت الاشارة إلى أن مقتله كان فى احد المصيفين المعروفين ، فقد تعين أن المقصود بكلمة «النباج» هنا هو ذلك المكان الذى يذكره البحترى — فى رواية ياقوت — فى قوله :

إذا جزت صحراء «النباج» مغرباً وجازتك بطحاء السواجير ياسعد
فقل لبنى الضحاك : مهلا ، فانى أنا الافعوان الصل والضيغم الورد (١)

وإذ كانت السواجير تطلق — كما يقول ياقوت ،نقلا عن السكرى — على «نهر مشهور من عمل منبج بالشام» (٢) ، فالنباج التى يعنيها أبو تمام قريبة من نهر السواجير هذا ، وبذلك تكون واقعة فى اقليم منبج ، بالشام .

وإذن فقد كان مقتل محمد بن حميد ، مرثى ابى تمام ، هنالك فى اقليم منبج أو قريباً منه ، فى تلك الجهات الواقعة إلى غربى الفرات ، والتى كانت ماتزال ميداناً شديد النشاط للمعارك المحتدمة المتصلة بين القبائل العربية النازلة هناك . وأكبر الظن أن مقتل ابن حميد كان فى احدى هذه المعارك . وفى شعر أبى تمام فى رثائه شواهد تؤيد ذلك لا نطيل بذكرها ، فليس ذلك من الموضوع الذى نعالجه ، وهو هذه المشكلة التى واجهتنا ، ونحن نريد أن نتبين وجه الحق فى مقام أبى تمام بمصر ، حين رأيناه يرثى رجلين فى وقت معاً ، فى صورة تدل على أنه كان حاضرهما ، أحدهما فى أقصى الغرب ، والآخر فى أقصى الشرق ، على ما يذهب اليه مؤرخو ذلك الشاعر .

---

(١) هذه هى رواية ياقوت فى معجم البلدان (٨ : ٢٤٤)، أما رواية الديوان فى طبعته التى بين أيدينا فتضع كلمة «الغور» بدلا من النباج .

(٢) انظر معجم البلدان ٥ : ١٥٨ ، ٨ : ٢٤٤ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٨

وإذ قد انتهى بنا البحث إلى تخليص هذه المسألة وتجلية وجه الحق فيها وكشف تلك الظلمات التى كانت مطبقة عليها ، وازالة ذلك الوهم الكبير السائد بين القدماء والمحدثين ، فلا علينا أن نتجاوز هذه القصائد ونمضى عنها ، فلها موضعها الذى هو أملك بها ، فانما كانت غايتنا من ذلك كله هو دفع ما قد يوجه الينا من اعتراض بهذه القصائد على ماذهبنا إليه فى تاريخ اقامة ابى تمام فى مصر .

وإذا كنا قد استطعنا بهذا التقصى أن نضع الأمور فى نصابها ، وأن ندفع ذلك التعارض التاريخى ، وأن نقضى فى هذه المشكلة التى تتصل بترتيب شعر ابى تمام ترتيباً زمنياً ، فلعلنا استطعنا بذلك أيضاً أن نقضى فى مشكلة أخرى لعلها أخطر من هذه المشكلة التاريخية ، وهى مشكلة التفاوت الكبير الواضح من الناحية الفنية الخالصة بين شعر أبى تمام فى عمير بن الوليد وشعره فى محمد بن حميد ، وهو تفاوت ماكنا نملك أن نجد تأويلا صحيحاً له ، الا أن نضرب فى متاهات التحلات ، اوصح انهما صدرا فى وقت واحد . أما الآن فقد أصبح ذلك التفاوت طبيعياً مفهوماً لا شذوذ فيه ولا غرابة .

٤

وإذ فرغنا من تعيين الفترة التى أمضاها أبو تمام فى مصر ، وانتهينا — فيما نقدر — من ازاحة ما كان يغشى هذه المسألة من غواش وشبه ، فبنا أن نسائل أنفسنا بعد ذلك : كيف اتجه أبو تمام إلى مصر ، وكيف تهيأت له الرحلة اليها ؟ بل كيف اتجه خياله نحوها ، فقصد قصدها ؟

والصلة بين الشام ومصر قديمة موغلة فى القدم متصلة طوال أعصر التاريخ حتى لقد كانا يعدان — فى بعض الاعتبارات — اقليما واحدا ، ولكنها كانت حتى ذلك العهد الذى نتحدث هنا عنه — صلات فى أكثر أمرها تجارية وسياسية أو ما إلى ذلك ، ولعلها لم تبلغ أن تكون صلات ادبية أو ثقافية بالمعنى الخالص الا بعد ذلك بقرون ، فأما فى ذلك العهد فما نحسب ان الصلة بين البلدين كانت تجعل الاتجاه اليها من مثل أبى تمام (وقد كان يقيم فى شمال

الشام) فى مثل تلك السن المبكرة اتجاها طبيعياً لا يثير انتباهاً ، ولا يبعث على تلمس بعض الظروف الخاصة وافتراضها .

فأن يغادر أبو تمام مقامه فى موطنه إلى مصر ، وهو لا يزال فى تلك السن المترددة بين الصبا والشباب ، ولا شىء يدعوه إلى مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة إلا ضيق ذات يده ، وقد امتحنته الحياة محنة شديدة فى التماس أسباب العيش بين حمص ودمشق ، أو الرغبة الساذجة فى التماس المجد الأدبى قدر ما يتصوره شاب ناشىء مثله ، فأمر لا يعدو — فيما نحسب — أن يكون شاذا غير مألوف . وليس الشاذ هو الرحلة نفسها ، فالرحلة هى الوسيلة الطبيعية القريبة المعروفة لمثل ذلك ، ولكن الشاذ هو الرحلة إلى مصر بالذات ، فلعل الجزيرة أو العراق — وقد قصدهما أخيرا — كانتا أقرب اليه ، وأقل فى الرحيل اليهما مشقة ، وأكثر فى الاذهان صيتاً وشهرة ، وأدنى إلى أن يحققا له ما كانت تضطرب به نفسه من التماس الثروة ، أو العيش الرخى ، أو المجد الأدبى ، فكيف عدل إلى مصر عنهما ؟

أكبر الظن أن بعض الملابسات الخاصة اتيحت له ، ولا بست هذه الرحلة ، فاذا عسى أن تكون هذه الملابسات التى عينت له وجهته ، ورسمت له طريقة ، ومضت به إلى مصر ؟

لقد رأينا من قبل أن ابا تمام كان فى مصر سنة ٢١٠ أو ٢١١ ، ونستطيع فى غير كبير تحرج أن نفترض ذلك العام تاريخ قصده مصر ، ومبدأ مقامه فيها . فاذا صح ذلك الفرض — وظواهر الأمور تدعو اليه — وأخذنا نرجع بأنفسنا إلى ذلك التاريخ ، ونضع أنفسنا فى ذلك الموطن الذى كان أبو تمام يعيش فيه إذ ذاك ، قبيل مقدمه مصر ، وجعلنا نتمثل صور الأحداث الجارية هنالك ، ومشاهد الحياة الطارئة فى تلك البيئة ، كان من أول ما يحضرنا ذلك الحدث الذى كان — فيما يظهر — من الأحداث الكبيرة البالغة الأثر فى اذهان أهل حمص (حيث كان يقيم أبو تمام فى ذلك الوقت) ، وكان مثار كثير من الأحاديث بينهم ، ومناط آمال الكثير منهم ، ذلك هو مرور

عبد الله بن طاهر بها ، فى طريقه من الجزيرة إلى مصر ، إذ وجهه الخليفة اليها لإقرار السكينة بها ، ووضع حد للفتن الكثيرة التى كانت ما تزال تضطرب فيها ، وتفسد على الدولة أمرها .

وكان عبد الله بن طاهر شابا من أروع شبان عصر ذكاء قلب وبعد همة وسراوة نفس ، ومن أكثر المترفين فى ذلك الوقت اصطناعاً لمظاهر الترف فى صورها المادية والمعنوية. وقد جرى من ذلك على تقاليد الأمراء والسراة . وكان قد قضى اذ ذاك فى الجزيرة خمس سنوات أميراً عليها ، محارباً لنصر بن شبث الثائر على الدولة فيها ، فكان بها — طوال هذه الفترة — مثال الأمير النبيل بكل معانى النبل : شهامة وسخاء وارعية ولطف حس . وكان السخاء طبعاً فى آل طاهر ، وخلقاً يحرصون عليه ويتواصون به . ولعلنا نستطيع أن نتمثل ذلك — إلى جانب الأخبار المنثورة فى كتب الأدب والمحاضرات — فى هذه الفقرات من كتاب طاهر إلى ابنه عبد الله هذا ، حين ولى الجزيرة :

«ولا تدخلن فى مشورتك أهل الدقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من منفعتهم . وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت من أمر رعيتك من الشح .. واعلم انك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك الا قليلا ، فان رعيتك انما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، وبذل صفاء أولياتك لك بالافضال عليهم ، وحسن العطية لهم . فاجتنب الشح ، واعلم انه أول ما عصى به الانسان ربه ، وان العاصى بمنزلة خزى ، وهو قول الله عز وجل (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من افضل أعمال العباد ، فاعدده لنفسك خلقاً ، وارض به عملا ومذهباً» (١)

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦١ .

اليه ، إذ كان معظم شعر هذه الفترة — أن لم يكن كله — قد تلاشى دون دون أثر يدل عليه الا تلك البقايا التى اشرنا اليها . ولولا الرواة المصريون ثم أبو عمر الكندى مؤرخ مصر الأول — وقد كان دقيقاً فى تسجيل تاريخ هذه الفترة وتتبع الآثار الدالة عليها — لما اتيح لنا — فى أكبر الظن — أن نعرف أن أبا تمام مدح ابن طاهر فى مصر ، وذكر الموقعة بينه وبين ابن السرى ، بقصيدة من الشعر احتفظ لنا منها بتلك البقايا .

ومهما يكن من شىء فقد انتهت هذه المحاولات الشعرية الأولى التى انقطعت عنا أخبارها — وان كنا لا نجد بداً من افتراضها — إلى بعض الغايات المرجوه التى كانت تتبرج لأبى تمام وتتخايل فى نفسه ، وهى أن يعقد أسبابه بأحد هؤلاء السراة ، يتخذه ممدوحاً له ، يصوغ فيه شعره ، ويظفر بأعطياته ، ويرضى بمثل هذه الصلة ذلك الغرور الذى كان يملأ نفسه ويملك عليه أمره . وكذلك لا نابث حتى نرى أبا تمام متصلا بعياش ابن لهيعه الحضرمى — وقد سبقت الاشارة اليه — إذ يتقدم اليه بقصيدة محكمة الصنع ، يمدحه بها ، لعلها أول قصيدة رضى بها عن نفسه ، وأحس لديها أن شيئاً ذا بال فى صناعة الشعر قد أتيح له . وقد حكى الصولى عن البحترى انه قال : سمعت ابا تمام يقول : أول شعر قلته : — تقى جمحانى لست طوع مؤنبى — ومدحت بها عياش بن لهيعة ، فاعطانى خمسة آلاف درهم(١) وإذا صح هذا القول عن أبى تمام ، وليس لدينا ما يعارضه أو ما يعتبر اعتراضاً عليه ، فانما يعنى بذلك أول شعر رضيه ، أما ما كان منه قبل ذلك فكأنما أهدره ولم يعتبره .

أما كيف اتيح لأبى تمام أن يتصل بعياش بن لهيعة هذا ، فان الشعراء يجدون سبيلهم دائماً إلى السراة ، والسراة من جانبهم لا يمتنعون على الشعر بل يرحبون به ويشجعون عليه . ولكن الأمر بالقياس إلى شاعر ناشىء مبتدىء مثل أبى تمام يحتاج إلى شىء من النظر . وليس يبعد عندنا

(١) أخبار أبى تمام ، ص ١٢١ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م

أن تكون هذه الصلة قد اتيحت له عن طريق صلته بالمسجد ، وبسبب من دراسته فيه وتردده بين حلقاته ، فقد يبدو أن عياشاً لم يكن غريباً عن المسجد ، بل كان ذا صلة قريبة به ، إذ كان — فيما يظهر — من أحد بيوت العلم والدين ، وأن اباه كان رجلا من رجال الحديث ، كما نجد الاشارة إلى ذلك فى بعض شعر ابى تمام فيه ، بعد أن فسد الأمر بينهما — كما سنرى ذلك بعد — فأخذ يهجوه ، وجعل يعرض — فى سياق الهجاء — بأبيه ، فكان مما قال فى ذلك هذا البيت :

ملاحم من لباب الشعر تنسى قراة ابيك كتب ابى قبيل (٢)

فالرجل لم يكن ، إذن ، بعيداً عن تلك البيئة التى كان أبو تمام فى ذلك الوقت وثيق الصلة بها ، وهى بيئة المسجد ، فليس ببعد أن يكون ذلك أحد الأسباب القريبة التى هدته اليه ووصلته به . وإذ كان — إلى جانب هذا — رجلا من سراة أهل مصر المعروفين ، وقد تولى غير منصب للدولة . ثم كان مع هذا رجلا يمنياً ، يرجع فى عصبيته إلى الأصل الذى ينتمى أبو تمام به فقد كان فى ذلك كله ماشق السبيل أمامه اليه ، ومهدها له ، حتى اتصل ما بينه وبينه .

أما من هو أبو عياش هذا الذى أشار اليه فى ذلك الشعر ، فذلك مالا ندريه على وجه التحقيق ، وان كان الذى نستظهره انه طيعة بن عيسى الحضرمى الذى تولى قضاء مصر — على ما يقول الكندى — من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٤ . ولعل «عيسى» الذى ورد فى هذا البيت من شعر أبى تمام فى مدح عياش :

كم دعوة لى إذا مكروهة نزلت واستفحل الخطب : ياعياش ياعيسى

انما كان يعنى به «عيسى» جده ، أبا «طيعة بن عيسى» هذا .

---

(١) الديوان ، ص ٢٩٣

(٢) الديوان ، ص ١٢٨ .

فأما عياش نفسه فقد سبقت الاشارة إلى ما أورده الكندى عنه من أنه كان يتولى الشرطة ، فى ولاية سليمان بن غالب بن جبريل ، والى مصر فى عهد المأمون ، سنة احدى ومائتين . ثم سكت عنه فلم يعد إلى ذكره بعد ذلك . على أن الشيخ يوسف البديعى يذكر فى سياق شرحه لبعض شعر أبى تمام أن عياش بن لهيعة الحضرمى كان على خراج مصر وقت قدوم ابى تمام إلى مصر (١) . ومهما يكن من أمر ، وسواء كان حين امتداح أبى تمام اياه على بعض المناصب أم لا ، فقد كان واحداً من كبار أهل مصر ومن سراتها المرموقين . وقد رأينا — فيما افترضناه واستظهرناه — كيف كانت سبيل ابى تمام اليه . وكيف كان مبدأ صلته به

ولم تمض هذه الصلة هينة لينة مطردة ، وانما عانت صنوفاً من المحن وألواناً من التقلبات ، ولكنها كانت بذلك كله — فيما نرى — من خير ما اتيح لشاعرية أبى تمام ، إذ عرضت عليه ألواناً من التجارب النفسية أنضجت حسه وأمدت موهبته الشعرية بما أرهفها ووسع من آفاقها ، واتاح لها أن تظهر مكنونها وتبرز خصائصها وتجدد ميادين نشاطها . ولذلك نحسب أن هذه الصلة بوجوهها المختلفة كانت بعيدة الأثر فى حياة أبى تمام الفنية ، جديرة بذلك أن يقف الباحث عندها ويطول تأمله لها .

وقد انتهت هذه الصلة التى بدأت صلة حب واعجاب ، بعد المحن والصروف التى تعرضت لها ، إلى القطيعة . وبذلك مر شعر أبى تمام فى عياش ابن لهيعة بأدوار ثلاثة ، على ما تمثله لنا ديوانه ، وهى المدح ثم العتاب ثم الهجاء . ويجدر بنا الآن أن نعرض هذه الأدوار الثلاثة ، ونتبين — قدر ما يتاح لنا — ما تكشف عنه من حالات أبى تمام النفسية وخصائصه الفنية فى كل منها

٧

نحتفظ لنا ديوان ابى تمام من مدائحه فى عياش بن لهيعة بقصيدتين ، أكبر الظن عندنا انهما ليسا كل ما وجهه اليه من ذلك القبيل ، فانما ينبغى

---

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ، ص ١٨١ ، ط مصر ، ١٩٣٤ .

ان تكون مدائحه له أكثر عدداً ، ولاسيما إذا لاحظنا ماوجهه اليه فى قصائده التى صاغها عتاباً له مما يشير إلى انقطاعه اليه ، واكثاره من مدحه ، مما لا يكاد يتفق مع القول بانه لم يمدحه بأكثر من هاتين القصيدتين . ولكنا — على كل حال — نستطيع أن نتمثل فيهما هذا الوجه من أوجه علاقته بعياش ، وهذا الدور من أدوار نشاطه الفنى ، تمثلا كافياً .

أما أولى القصيدتين فهى التى سبقت الاشارة اليها فى حكاية البحترى عن أبى تمام ، وهى :

تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى وليس حبيبى ان عذلت بمصحب(١)

وأما الأخرى فقصيدة سينية مطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان محلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوساً(٢)

والمدح يكون باباً من أبواب الفن المعتبرة ، وصورة من صوره الجديرة به ، حين يكون صادق اللهجة ، صحيح التعبير عما يحسه الشاعر ويضمره صادراً عن تأثر نفسى بالممدوح واعجاب به واستجابة طبيعية لذلك التأثر فيكون الممدوح من الشاعر مصدر إلهام له ، ويصبح بذلك موضوعاً من موضوعات شاعريته . أما فيما عدا ذلك فليس — فى حقيقة الأمر — الا صناعة شعرية محضة ، ووسيلة غير كريمة من وسائل التماس العيش وطلب المكسبة . فذلك هو — فيما نحسب — الفرق بين المدح الذى يتسم بسمة الفن ويستحق اسمه ويدخل فى نطاقه ، والمدح الذى لا يعدو أن يكون صناعة مفتعلة ملفقة ، وكلاما مزوراً متكلفاً ، فى الأصل الذى يصدر هذا وذاك عنه .

وإذ كان بينهما هذا الفرق فى مصدرهما وأصل وضعهما ، فلابد أن يكون بينهما — تبعاً لذلك — مثل ذلك الفرق فى الصورة الشعرية لكل منهما.

---

(١) ديوان أبى تمام ، من ٢٠ — ٢٢ .
(٢) ديوان أبى تمام ، من ١٢٧ — ١٢٨ .

فالمديح الذى هو صورة من صور الفن وتعبير من تعبيراته ينبغى أن يصور الشخص الممدوح كما تأثرت به نفس المادح ، وكما انطبع فى خيال الشاعر ، وعلى هذا وجب أن تكون شخصية الممدوح ظاهرة فيه ، متميزة بخصائصها وملامحها وقسماتها التى تنفرد بها ، كما تظهر فيه — إلى جانب ذلك — شخصية الشاعر وطابعه فى شعره من حيث انفعل بهذه الصورة ، وبذلك تكون قصيدة المديح صورة للممدوح حية نابضة ، ممثلة له ، معبرة عنه ، كأنها لوحة فنية ، كما تعبر عن شخصية المادح وذاتيته وتكون قصائد المديح بذلك أيضاً مجموعة من الصور تختلف كل واحدة عن الأخرى فيما تمثله وتعبر عنه ، بقدر اختلاف الأصل ، واختلاف الحالة الانفعالية التى صحبت القصيدة .

وأما المديح الذى هو صناعة شعرية فلا شىء من ذلك فيه ، إذ كان المادح لا يصدر عن نفسه ولا عن انفعال خاص انفعله لقاء ممدوحه ، وانما هو ينظم ابياتاً يتملقه بها ، ويحاول أن يصوره فيها بالصورة التى ترضى غروره ، فهو يلتمسها فى صفات المدح العامة المختلفة ، يتناولها ويأخذ فى تنسيقها وتلفيقها وصياغتها كما يصاغ الشعر ، ولكنها تجىء بالرغم من كل ما بذله فيها وأسبغه عليها شيئاً لا حياة فيه ، ولا روح تنبض فى أجزائه ، ولا تعبير يصدر عنه . وقد تروع أحياناً ، ولكنها هى روعة الصناعة البارعة ، والصياغة المتقنة ، والحذق فى التأليف والتصنيف والتلفيق والتنسيق . ومن الطبيعى — إذ كانت كذلك — الا نجد فيها صورة الممدوح خاصة ، وانما نجد فيها — إذا وجدنا — صورة عامة ليست هى أجدر بالممدوح منه بغيره . وانما تختلف المدائح المصنوعة هذه الصناعة باختلاف القدرة على سبك التلفيق والاجادة فى وجوه التنسيق ، والبراعة فى الصياغة الشعرية .

ذلك هو — فيما نرى — الفرق بين نوعى المديح . وتلك هى الوجوه التى يبدو فيها هذا الفرق . ونحن نستطيع أن نتبين ما قررنا من ذلك فى دواوين الشعر التى بين أيدينا ، كما نستطيع أن نتخذه معياراً نزن به ونقدر على أساسه ما يعرض لنا من شعر المديح الذى درج الكثير من دارسى الأدب

على أن يطرحوه جملة واحدة . فأى منزلة من هاتين المنزلتين نستطيع أن نزلها ذلك الشعر الذى بين أيدينا من مدح أبى تمام لعياش بن لهيعة ؟ أكان أبو تمام يصدر فى ذلك الشعر عن انفعاله بالممدوح وتأثره بشخصيته واعجابه بصفاته البارزة ، فكان شعره فيه صدى لذلك الانفعال ، واستجابة لذلك الاعجاب ؟ أكانت صلة أبى تمام بعياش صلة شعرية فنية على ماهو الأصل فى الفن ؟ أيستطيع ذلك الشعر أن يعرفنا بعياش بن لهيعه ، ويؤدى الينا صورة منه حية نابضة معبرة عنه ، ممثلة لخصائص شخصيته ، كما تلقتها نفس أبى تمام ؟

عياش بن لهيعة ، كما يقدمه الينا أبو تمام فى قصيدتيه اللتين اشرنا اليهما ، رجل عالى الهمة ، شديد البأس ، كريم فياض الندى ، رفيع المكانة بين قومه من حضرموت ويعرب . ثم هو — إلى جانب هذه الصفات — نافذ البصيرة إذا رأى شيئاً ، واضح العبارة إذا عبر عنه . هذه هى صورة الرجل قدر ما استطاع أبو تمام أن يصوره ويقدمه الينا فى شعره الذى مدحه به ، أو فى هذه البقية الباقية من ذلك الشعر . ثم لا شىء وراء ذلك الا طائفة من الصور البيانية للتعبير عن تلك الصفات التى ذكرناها لتلك الصورة . فهى — كما نرى — مبهمة شديدة الابهام ، لا يكاد الناظر اليها يستطيع أن يتبين فيها شيئاً من الملامح الخاصة أو القسمات المميزة ، على كثرة ما فيها من صناعة التشبيه والاستعارة وما اليهما ، مما يبدو أن أبا تمام انفق فيه جهداً غير قليل . ولكن هذه الصناعة لا يمكن أن تخدعنا عن حقيقة تلك الصورة الأولية التى هى أدنى إلى الشيوع ، وأشبه بأن تكون صورة مفتعلة مصنوعة ، لفقت صفاتها من هنا وهنا ، ثم اسبغت عليها هذه المجموعة المتكلفة من التشبيهات والاستعارات

ذلك هو ما يبدو — بادىء الرأى — فى تفسير ذلك الابهام فى الصورة وذلك الشيوع فى مدلولها . على أن هنالك اعتباراً آخر ينبغى الا نغفله ونحن نبحث هذه الظاهرة ونتبين أصولها ، لنقدر شعر أبى تمام فى ذلك اللون وفى تلك المرحلة . ذلك انه كان فى ذلك الوقت شاباً ناشئاً ، صغير السن قليل التجربة

حديث العهد بالتمرس بالرجال . والصغار لا يدركون – بطبيعة الحال – من الرجال الا صورهم العامة التي تأخذهم ، والخطوط الكبرى البارزة من شمائلهم ، أما الدقائق والتفصيلات فقل أن يملكوا القدرة على ملاحظتها. ومن طبيعة هذه الصور العامة انها تصدق على الكثيرين ، فهي بذلك أدنى إلى الشيوع في أفراد الجنس منها إلى الاختصاص بواحد معين . فاذا نحن أخذنا هذا الاعتبار وجعلناه في موضع تقديرنا ، وجدنا الأمر هنا في مثل هاتين القصيدتين ليس أمر تكلف وتلفيق وتقليد فحسب ، ولكنه مع ذلك أمر السن وحكمه وطبيعته .

وهذا عندنا اعتبار صحيح ، وشعر أبي تمام في هذه المرحلة متأثر به ، خاضع له ، إلى حد بعيد .

ولكن أين شخصية ابي تمام المميزة له في هذا الشعر ؟ ولسنا نقصد شخصيته في الصناعة الشعرية والأسلوب الفني ، فليس ذلك مما يعنينا هنا . ولكنا نعني بذلك الشخصية التي تظهر أكثر ما تظهر في عاطفة الشاعر نحو الموضوع الذي يعالجه بالشعر . ولاريب أن هذه العاطفة تكون أشد رهافة وأكثر طواعية وأدنى إلى الانفعال والتأثر حين ينشيء الشاعر شعره ، فأين هي هذه العاطفة التي تتميز بها شخصية أبي تمام في حال انشائه لهاتين القصيدتين ؟ أنستطيع أن نرى فيهما ميوله وأهواءه وحركات نفسه ، فنرى فيهما صورة نفسية منه ؟

اننا حين نقرأ القصيدة الأولى لنتحسس فيها هذه الناحية لانكاد نظفر بشيء ، فان الصناعة المتكلفة ، والصياغة التقليدية ، تكاد تستغرقها ، حتى ما يبدو شيء عداها ، الا شيئاً ضئيلا واهياً خافتاً ينم عن بعض العاطفة ، ولكنها مع ذلك شيء بعيد عما نحن فيه . انها عاطفة ابي تمام فيما يتصل بآماله في الممدوح ومطامعه التي جعلت تحلق فوقه وتحوم حوله ، لا فيما يتعلق بالممدوح نفسه ، كما قد يظهر ذلك في مثل هذا البيت :

تركت حطاماً منكب الدهر اذ نوى زحامي لما أن جعلتك منكبي

وما اليه مما تبدو فيه عاطفته هذه ضعيفة خافتة، لا تكاد تبلغ نفس القارىء.

فأما القصيدة الأخرى السينية فانها تختلف من هذه الناحية عن القصيدة البائية اختلافاً غير قليل ، فالعاطفة فيها ظاهرة قوية ، تبلغ نفس القارىء في غير معاناة ، كما يستطيع القارىء أن يتبين من خلالها شخصية ابى تمام واضحة جلية . ولكنها هي أيضاً لا تتصل بعياش ولا بصورته على الوجه الذى يمكن أن تنفعل به نفس الشاعر ، إذ هي — فى حقيقة الأمر — عاطفته هو وأحاديث نفسه خالصة من الالتباس بالممدوح ، إذ يذكر بلده التى فارقها ، وقد جعل يحس الأسى لفراقها ، كما يذكر مسارح هواه فيها ، ومغانى لهوه بين أرجائها . وقد أخذ نفسه بالتسلى عنها ، وجعل يرم بالتصبر ما تصدع من عقله لابتعاده عنها . ثم لا يكاد يملك التمادى فى هذا التصبر . وذلك إذ يقول فى هذه الأبيات الجميلة الرائعة التى تروع قبل كل شىء بصدق تعبيرها عن الاحاسيس التى كانت نفس الشاعر تضطرب بها ، إذ تؤدى الينا صورة حية نابضة منها ، تستطيع بحيويتها هذه أن تنفذ إلى أعماق مشاعرنا ، وأن تشركنا مع صاحبها . وقد جعل أبو تمام هذه الأبيات فاتحة لقصيدته ، ومقدمة لمدحته :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً ... ورم بالصبر عقلا كان مألوساً
مرى رداء الهوى فى حين جدته ... واهاً له منه مسروا وملبوسا
لو تشهدينى اقاسى الدمع منهمراً ... والليل مرتتج الابواب مطموساً
استنبت القلب من لوعاته شجراً ... من الهموم فأجنته الوساوسا
أهل الفراديس لم أقصد لذكركم ... الا سقى ورعى الله الفراديسا
إذ لا تعطل منها منظراً أنقاً ... وملعباً بمهسى اللذات مأنوساً

فها هى ذى عاطفة قوية محتدمة تبرز بها شخصية ابى تمام فى هذه الأبيات بروزاً واضحاً لاخفاء فيه ، وها هو ذا شاعرنا قد استطاع أن يطوع الشعر للتعبير عن أحاسيسه ، وأن يوفق بين ذلك وبين الديباجة العربية التى يبدو انه كان — منذ أول أمره — حريصاً عليها ، وان اهدر مشاعره فى سبيلها

ولكن أين فى هذه القصيدة تأثر أبى تمام بممدوحه ، وانفعاله بشخصيته ؟ واين هى العاطفة التى يمكن أن يقال انها صادرة عن ذلك التأثر ؟ أيمكن أن نقول أيضاً ، فى هذه المسألة ، كما قلنا من قبل فيما يتصل بقدرة أبى تمام على تصوير الممدوح فى صورة تبرز شخصيته ، ان الأمر متصل هنا كذلك بطبيعته من حيث صغر سنه وقلة تجربته وحداثة تمرسه بالحياة والناس ، فهى المسئولة هنا أيضاً عن مثل ذلك القصور ، إذ كان التأثر بالرجل شرطاً لابد منه لنشوء تلك العاطفة ، وإذ كان ذلك التأثر انما يجىء فى المكان الثانى من تقديره له ، والتقدير أمر لا يتاح للصغار ، إذ كان محتاجاً ، أول شىء ، إلى التجربة والخبرة ، واين هم منهما . ومن أجل ذلك جاء شعر أبى تمام فى عياش بن لهيعة شعراً مصنوعاً ملفقاً مقلداً ، لا ينبع من النفس . أيمكن أن نذهب هذا المذهب فى تأويل عدم وضوح شخصيته فى ذلك الشعر على الوجه الذى قدمنا بيانه ؟ .

قد يكون ذلك قولا مقبولا إلى حد ما فى تأويل ذلك الطابع التقليدى الذى نشهده غالباً على ذلك الشعر ، ولا سيما فى أبيات المديح الخالص .

ولكن مهما يكن من أمر هذا الاعتبار فانه لا ينبغى أن نغفل فى هذا المقام اعتباراً آخر ، لعله من أول ما يجب ملاحظته وتقريره فى هذا الصدد ، ذلك هو منزلة العنصر التقليدى فى الفنون جميعاً ، فهو عنصر أساسى لابد منه ولاغناء عنه ، على اختلاف فى المنزلة التى ينزلها بين هذا الرجل وذاك من رجال الفن ، ولكنه على كل حال عنصر له مكانه فى أصول الفن وله قدره وخطره . والأمر هنا ينبغى أن يكون أظهر أثراً ، ففى شعر شاعر ناشىء ، كأبى تمام فى هذه الفترة ، ما يزال يصدر — أكثر ما يصدر — فيما يتاح له من انتاج فنى ، عن تلك المثل الفنية المتمثلة فى شعر الشعراء المتقدمين ، وقد عكف عليها واستغرق فيها يتأملها ويطيل درسها ويتخذها إماماً له فى صناعته ، ويجعلها نصب عينيه فى كل ما يعالج ، فان ذلك العنصر التقليدى لابد أن يأخذ المكان الأول عنده ، وخاصة فى مثل صناعة المديح

التي يجد نفسه مضطرا لمعاناتها ، ويرى انها سبيله إلى المجد الأدبي الذي يناشده إذا استطاع أن يظفر برضا النقاد الذين اتخذوا من الشعر القديم معاييرهم .

ذلك هو الوضع الذي ينبغي — فيما نرى — أن نضع فيه شعر ابي تمام في مدح عياش بن لهيعه . فاذا كان هذا الشعر لا يرضينا من وجهة النظر الفنية التي قدمناها ، فانما كان ذلك شيئاً طبيعياً بالقياس إلى شاعر ناشيء مثله ، يقتحم هذا الفن الذي يعتبر — في حقيقة الأمر — من أدق الفنون الشعرية وأشقها ، وأكثرها حاجة إلى الشاعرية القوية الناضجة ، تمدها معرفة واسعة ، وخبرة مستفيضة ، وبصيرة بحقائق الرجال نافذة .

٨

لم تلبث علاقة ابي تمام بعياش بن لهيعة أن تراخت وفترت . فلم يعد عياش يرى في ابي تمام ما كان يراه فيه من قبل ، حين كان يقدره ويجزل له العطاء ، كما فعل في أول قصيدة توجه اليه بها ، فأعطاه فيها — كما سبق القول — خمسة آلاف درهم . ولم يعد يهش له ، ويقبل عليه ، ويتحفى به ، كما كان شأنه معه أول أمره . فما عدا مما بدا ؟ ماذا عسى أن يكون هنالك مما جعل عياشاً يصرف عن أبي تمام وجهه ، ويصد عنه بجانبه؟ أيمكن أن يقال أن مدح أبي تمام له لم يقع منه بعد الموقع الذي كان يرجوه ، لأنه — كما رأينا — شعر متكلف مصنوع ، فكان ذلك سبباً في انصرافه عنه ، وتأبيه عن تقديره وعجازاته ؟ كلا ! ذلك فرض لا نرى انه قريب سائغ ، لا لأن شعر أبي تمام في قصيدته الثانية لم يكن دون شعره في قصيدته الأولى التي ظفرت باعجابه وتقديره ، فحسب ، ولكن لأن ذلك الفرض يبعده عندنا أيضاً ما هو مألوف معروف من طبائع الناس الغالبة عليهم والمصرفة لهم ، وخاصة سراتهم وأهل الترف فيهم ، من استنامتهم إلى من يناقهم ، وعجزهم عن الاعتصام من نفاقه ، أو تبين زيفه وتكلفه . فهذه ناحية ضعف قل من يرىء منها أو تغلب عليها ، ومن أجل ذلك قل ان نرى ممدوحاً من هذه الطبقة لم ينخدع فيما يقدم اليه من مدح ، فيراه متكلفاً مفتعلا لا حقيقة يؤمن بها المادح ويصدر

فيها عن نفسه ، ويعبر فى ذلك الشعر عنها . انه قدر مشترك من الغرور والايمان بالذات فى الناس جميعاً ، وكلما ارتفعت بالمرء طبقته ، واترفت حياته ، عظم من الغرور نصيبه ، وضؤلت قدرته على الحكم وتمييز الحقائق من هذه الناحية .

ولا نريد أن نقفو هنا ما ليس لنا به علم ، فلعله كان هنالك بين الرجلين من أسباب الحفوة ما لم يبلغنا شيء منه . وقد حكى ابن عبد ربه فى الفصل الذى عقده على (من مدح أميراً فخيبه) أن حبيبا الطائى مدح عياش بن لهيعة وقدم عليه مصر ، واستسلفه مائتى مثقال ، فشاور فيها زوجته ، فقالت له هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً ، فاعتل عنه ، واعتذر اليه ، ولم يقض حاجته . فقال فيه ...(١)» وهذا خبر لانريد أن نقف عنده ، إذ كان — فيما يبدو — من تلك الأخبار التى توضع للاستطراف . ولسنا نرى فيه ، ولا فى طبيعة هذا البحث الذى نعالجه ، ما يجعلنا نبيح لأنفسنا أن نصدر عنه أو نستند اليه .

ان الأصل فى مثل هذا البحث أن نجعل مصدرنا الأول هو شعر ابى تمام نفسه ، فماذا يمكن أن نصدر به عن هذا الشعر فى هذه المسألة ؟ ألا يمكن أن نرى فيه مالعله يكون دليلا على ما كان هنالك ، مما جعل يدب بين ابى تمام وعياش بن لهيعة ، ويعمل فى تغيير نفس عياش على صاحبه ؟

بلى ، فى شعر أبى تمام اشارات صريحة إلى شيء من هذا ، إذ يشير إلى انه كان بين أصحاب عياش وأهل مجلسه من جعلوا يطلقون السنتهم فى أبى تمام : وشاية به عنده ، وتهويناً من أمره لديه ، وايغاراً لصدره عليه . وذلك إذ يقول فى احدى قصائده التى جعلها فى معاتبة عياش ، يشير إلى هؤلاء ويصف نظرتهم اليه :

---

(١) العقد الفريد ١ : ٣٣٠ ، طبعة التأليف والترجمة والنشر .

أظن عندك أقواماً وأحسبهم ... لم يأتلوا فى ما أعدوا ومار كضوا
يرمونني بعيون حشوها شزر ... نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضي وانتظار غد ... والكظم حتم على الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكرى ... ولا رقابهم الا وهم حيض
أصبحت يرمى نباهاتى بخامله ... من كله لنبالى كلها غرض (١)

فقد كان أبو تمام إذن يرتاب فى هؤلاء «الأقوام» الذين يجالسون عياشاً ويتهمهم بأنهم هم الذين أوغروا صدره عليه ، وصرفوا وجهه عنه ، بما كانوا يبسطون من ألسنتهم فيه عنده . وذلك فيما نحسب قريب ، فليس عجيباً أن يثير أبو تمام ، وقد استطاع أن يبلغ من عياش ذلك المبلغ ، وأن يظفر منه فى أول مدحة يتقدم بها اليه ، بخمسة آلاف درهم . وهو مع ذلك رجل طارىء وشاعر ناشىء ، ليس عجيباً أن يثير بذلك الحسد والحفيظة ، ويملأ قلوب أصحاب عياش وجلساءه اضطغانا عليه وكراهية لمكانه من صاحبهم فلا يجدون الا أن يملأوا مجالسهم عند عياش بالوقوع فيه والنيل منه ، ملتمسين بذلك أن يصرفوا صاحبهم عنه ، ثم لا يزالون به حتى يبلغوا ما أرادوا ، فيفسد ما بين الرجلين .

فهذه واحدة لا نرى فى أنفسنا حرجاً من أن نعتدها من أول ما أحدث تلك الجفوة بين أبى تمام وممدوحه عياش . بل هى — فيما نحسب — الأصل الذى جرات تتفرع منه وتتكاثر عنه وتبنى عليه أسباب الفساد الأخرى ، حتى انتهت إلى غايتها ، وهى القطيعة . ولعلنا لا نبعد كثيراً إذا نحن اعتبرنا فى ذلك ما نعرفه على وجه ما من خلق ابى تمام فى هذه السن الغضة ، من اعتداده بنفسه ، ومبالغته فى المثالاة بقدره ، والتنويه بما يستطيع أن يبلغ بشعره ، مما هو أدنى إلى الغرور الصبيانى ، وأشبه أن يجعله بغيضاً ثقيل الظل ، إلى حدما . وحسبنا لتبين ذلك اللون من خلق الفتى ، أن نقرأ له هذا البيت الذى

(١) ديوان أبى تمام ، ص ٣٤٤ .

يختم به قصيدته فى عياش ، ويعقب به على ما يذكر من آلائه عليه ورعايته له :

وهاك ثياب المدح ، فاجرر ذيولها ... عليك ، وهذا مركب الحمد فاركب

أو قوله فى موضع آخر ، وهو يعاتبه ويريد أن يترضاه :

جش لى ببحر واحد أغرقك فى ... مدح أجيش لها بسبعة أبحر
كم من كثير البذل قد جازيته ... شكراً بأطيب من نداه وأكثر
وأعلم بأنى اليوم غرس محامد ... تزكو فتجنيها غدا فى العسكر (١)

فتلك — كما نشعر فى ذلك الشعر — لهجة بغيضة ثقيلة ، وخاصة حين تكون صادرة عن شاعر ناشىء مبتدىء . وهى تكشف لنا عن مبلغ الغرور الفج الذى يضمره هذا الشاب وتملىء به نفسه ، كما نستطيع أن نرى منها أن مسلكه من ممدوحه — وغيره — كان تعبيراً غير متجمل عن هذا الغرور الفج الغفل الثقيل ، فى صور قد تكون مثيرة . وهو بذلك قد مكن للقلوب الحاقدة المضطغنه ، والألسنة الحاقدة المنبسطة ، للنيل منه ، وبلوغ مآربهم عند عياش فيه ، فلم يلبث أن رآه معرضاً عنه بوجهه ، ثم صارفاً العطاء دونه .

وحين نرى فى الابيات الضادية التى أوردناها منذ قليل كيف كان موقفه من جلساء عياش ، وكيف كان حديثه عنهم ومهاجمته اياهم ، فى عبارات نابية أقرب إلى القحة ، نستطيع أن نتمثل إلى أى حد كانت طبيعة ابى تمام التى وصفنا مسؤوله عن ذلك الفساد الذى أصاب ما بينه وبين عياش

وهكذا انتهت فى صلته به المرحلة الأولى . وهى المرحلة التى يمثلها الديوان بالمديح ، وبدأت المرحلة الثانية التى ندير عليها الحديث فى هذا الفصل ، وهى المرحلة التى يمثلها الديوان بقصائد العتاب .

وقد احتفظ لنا الديوان من شعر هذه المرحلة بقصائد أربع ، لا نرى إلى أى حد تمثل هذا الشعر فيها ، وها هى ذى ، كما وردت فى الديوان .

---

(١) الديوان ، ص ٣٤١ .

قصيدة رائية بدأها بالحديث عن نفسه ، مطلعها :

صدفت هـيا قلبي المســـتهتر فبقيت نهب صبابة وتفكر (١)

وقطعة صغيرة من ستة أبيات ، بدأها بقوله :

ليس يدرى الا اللطيف الخبير أى شيء تطوى عليه الصدور (٢)

وقصيدة صغيرة ضادية ، أوردنا بعض ابياتها منذ قليل ، ومطلعها :

ذل السؤال شجى فى الحلق معترض من دونه شرق ، من تحته جرض (٣)

فأما القصيدة الرابعة فقد جاءت فى الديوان فى باب الهجاء منه ، وهى إلى معانى العتاب أقرب ، فاعتبرناها بذلك الاعتبار ، وضممناها إلى اخواتها وهى :

قلبت أمرى فى بدء وفى عقب ورضت حالى فى جور ومقتصد (٤)

وهناك قصيدة أخرى أوردها الديوان فى باب العتاب ، على انها مما قيل فى عياش بن لهيعه ، وهى القصيدة التى تبدأ هكذا :

يضحكن من أسف الشباب المدبر فبكين من ضحكات شيب مقمر

ولكنا أغفلناها إذ ليست فى عياش قطعاً ، وان ذكر ذلك فى ترجمتها ولكنها — كما يؤخذ من القصيدة نفسها — فى رجل اسمه جعفر ، وكنيته أبو الفضل . أما اسمه فيدل عليه من القصيدة هذا البيت :

يعجبن منى أن شمخت بمهجتى وكذاك أعجب من سماحة جعفر

---

(١) الديوان ، ص ٣٤٠ .
(٢) الديوان ، ص ٣٤١ .
(٣) الديوان ، ص ٣٤٤ .
(٤) الديوان ، ص ٢٧٥ .
(٥) الديوان ، ص ٣٤٢ .

وأما كنيته فقد جاءت الاشارة اليها أيضا ، فى هذا البيت من القصيدة :

انى انتجعتك يا أبا الفضل الذى بالجود قرب موردى من مصدرى

وإذا كنا لم نتبين — كما قررنا من قبل — فى الشعر الذى قاله أبو تمام فى مدح عياش بن لهيعه شيئاً من سمات الفن الشعرى أو المدح الفنى الذى ينبعث عن نفس الشاعر اعجاباً بالممدوح واكباراً له وتقديراً لمزاياه ومآثره ، والذى يتجه إلى تصوير شخصيته تصويراً واضحاً معبراً ، فان الأمر على خلاف هذا فيما بقى لدينا من الشعر الذى قاله فى معاتبته على انصرافه عنه ، واغفاله أمره ، إذ نستطيع فى يسر أن نتبين فيه كثيراً من الخصائص الفنية ، كصدق اللهجة ، وانبعاثه انبعاثاً طبيعياً من أعماق النفس ، والملاءمة بين المعنى والعبارة ، والبساطة فى التعبير دون تكلف أو تصنع — كما نتبين ذلك أيضاً فى القصائد العدة التى هجاه بها — وهذا الخلاف بين هذين النوعين من شعر أبى تمام فى هذه الفترة يرجع — بين ما يرجع اليه — إلى ما أشرنا اليه آنفاً من دقة فن المديح ووعورة مسلكه ، وحاجته أكثر من غيره إلى شاعرية ناضجة . كما يرجع مع هذا إلى أن فى المدح قدراً من الموضوعية فى حين أن العتاب — وقريب منه فى ذلك الهجاء — ذاتية خالصة أو كالخالصة . والشاعر انما يعبر فيه عن نفسه وحدها .

لقد كبر على أبى تمام أن يقف عياش منه هذا الموقف ، وأن يصد آماله فيه ذلك الصد ، فلم يلبث أن أحس بالوخز ينال كبرياءه ، ويحاول أن يطاطىء من غروره ، فانتفضت نفسه ، وثارت كبرياؤه الجريحة به ، فانطلقت شاعريته تعبر عن احساس الوجيعة الذى أصابه فى أعز شىء لديه ، وهو كبرياؤه . وبذلك اتخذت ثورته النفسية هذه الصورة الفنية التى نراها فى ذلك الشعر ، وقد بدأت هادئة متلطفة مترفقة ، ثم أخذت تشتد قليلا قليلا ، وتعنف شيئاً فشيئاً ، بقدر ما كانت مشاعره تتعقد فى نفسه ، فيشتد احساسه بالوجيعة ، وترتفع صيحة كبريائه به ، إلى أن بلغت غاية الشدة

وانتهت إلى حالة من العنف لاتكاد تقف عند حد، ولا تكاد تبقى على شيء ، كما سنرى ذلك عندما نعرض لهجائه عياشاً .

وليس بنا فى هذه الدراسة أن نحلل قصائده الأربع فى معاتبته عياشاً تحليلا مفصلا ، ولا أن نطيل النظر فى خصائصها الفنية التى احلنا الاشارة اليها ، ولكنا نكتفى من ذلك بتعرف صورة من حياته النفسية فى هذه المرحلة كما تتمثل فى شعره . وهذه الصورة هى التى ينبغى أن تكون أساساً لكل تحليل فنى .

هاهو ذا صاحبنا يدخل على عياش كما كان يدخل عليه . ولكنه يحس فى هذه المرة شيئاً لا عهد له به من قبل، يداخل جو المجلس ، ويبعث فى قلبه شعور الانكار ، فصاحبه منقبض الوجه ، لا يتهلل له ولا يتحفى به ، كما كان شأنه قبل اليوم فى استقباله . ما هذه الغشاوة التى تنتشر على وجهه وتحجب دونه ما كان يعرفه ويأنس له قبل فى أساريره ، من هشاشة وبشاشة ومن بشر وتطلق ؟ أما إن بابه لا يزال مفتوحاً له ، فلا حاجب من دونه يحجبه ، ومجلسه لا يزال متاحاً له ، فليس من يمنعه محضره . ولكن ما جدوى ذلك ، وقد قامت «الكآبة والبسور» اللذان يغشيان وجه عياش مقام الحاجب الشديد المراس ، فلا هو مستطيع أن يداخل نفسه ، ولا هو مستطيع أن يتبين فى وجهه ما يداخل تلك النفس من معان تثير الريبة وتبعث الحيرة ، ولكنه يحس ذلك التقبض فتشتد ريبته ، ثم لا يلبث أن يرى رأى العين إعراضه عنه ، وانصرافه بلحظه إلى غيره من أصحاب مجلسه ، فينصرف قلق النفس وقد جعلت أشباح هؤلاء الجلساء تمر أمام خاطره ، تنبعث منها الكراهية والبغض . ولم تملك شاعريته إزاء تلك الصور وهذه المشاعر إلا أن تعبر عن نفسها ، فانطلقت بهذه الأبيات التى يوجه فيها القول إلى عياش هيناً ليناً هادئاً مطمئناً ، وإن كانت روح القلق تترقرق فى خلالها :

ليس يدرى الا اللطيف الخبير ... أى شيء تطوى عليه الصدور
ويقولون : انك المرء بالغيـ ... ـب محام عن الصديق نصور

فاذا جئت زائراً حجبت وجهك عني كآبة وبسور
فتطلق من العناية ان البشر في معظم الأمور بشر
انما البشر روضة ، فاذا كا ن يبذل فروضه وغدير
واقسم اللحظ بيننا ان في اللحظ لعنوان ما تجن الصدور

فهل استطاع أبو تمام أن يبلغ بهذه الأبيات الهينة اللينة المتلطفة المتزنقة شيئاً ؟ هل استطاع أن يعطف صاحبه اليه فيرد إلى نفسه الطمأنينة الذاهبة؟ كلا ! بل لعل أصحاب مجلس عياش قد اليح لهم من خلالها منفذ جديد ينفذون منه اليه ، ويأخذون السبل عليه ، فيبسطون فيه السنتهم ، ويزيدون ما بينه وبين عياش فساداً . فهاهو ذا لا يزال ماضياً في غوايته : يقرن نفسه بعياش ويضع نفسه منه — وأين هو منه ؟ — ذلك الموضع ، اذ يراه قرينه ، ويعتده صديقه ، ويقف منه موقف الند للند ، لا موقف الطالب المستميح من السيد الباذل المقصود ، وذلك في الوقت الذي يعرض فيه بهم ، وبما ينالونه به في مجلسه :

ويقولون : انك المرء بالغيـ ـب محام عن الصديق نصور

وهكذا جعلت نفس عياش تزداد صدوفا عن ابي تمام ، وأخذت الفجوة بينهما تمتد وتتسع ، كما أخذت تمتلىء باحاديث السوء التي هي بطبيعتها سريعة التوالد والتكاثر . وانقبضت يد عياش عن ابي تمام كما انقبضت نفسه ، وجعل صاحبنا يتجه اليه وهو لا يلتفت لفته ، ويرجوه وهو مغرق في إعراضه . وضاق بذلك أشد الضيق ، وقد جعل «ذل السؤال» يعضه ، وكان يحس به كالشجا في حلقه ، يعترض انفاسه ، «من دونه شرق ، من تحته جرض» . ولكن ماذا عساه يصنع ؟ «من يشتكي؟ وإلى من يعتزي؟ وندى من يحتدي ؟» كما كان يقول في احدى قصائده ، فقد جعلت الحيرة تتقاذفه وتأخذه من يمين وشمال ، وهو لا يكاد يملك ازاءها الا هذا الشعر يستروح اليه ويتنفس به . فهو حريص على كرامته أشد الحرص ، يشعرها شعوراً صادقاً قوياً تنفخ فيه كبرياؤه الغريزة ، فهو يملك عليه أمره كله ، اذ ليس في

«ماء كف» عياش عوض يمكن أن يستعيضه عن «ماء وجهه» إذا هو أرافه وأغناه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يجد له منصرفاً عنه ، ومطالب حياته تستحثه وتحفزه وتأخذ بأكظامه ، وتمنعه من تلك الكبرياء ، فما بد من أن يغمض قليلا على القذى . وهكذا يظل يتردد على عياش يترضاه ويستميح عطاءه حولا كاملا ، ويقول له :

الفطر والأضحى قد انسلخا ، ولى ... أمل ببابك صائم لم يفطر
حول ولم ينتج نداك ، وانما ... تتوقع الحبلى لتسعة أشهر

وعياش لا يزداد مع ذلك الا اعراضاً عنه وغضباً عليه واستخفافاً بأمره.

ولعل مثل هذا الأسلوب الذى كان أبو تمام يصطنعه فى شعره ، وهذه الاستعارات التى تشى بروح السخرية ، كان مما يثير عياشاً فيمعن فى موقفه منه . والحياة تعض أبا تمام بأنيابها وتنوشه بأظافيرها . وقد جعل يعز عليه ويشق على نفسه أن يبتلى مرة أخرى بالضيق والشظف ، وأن تصوح آماله وأحلامه بالحياة الراضية والمجد الأدبى بعد أن نضرت وتفتحت ولم يكد يخالجه هذه المرة ، شك فى أنها نضرة دائمة . وانه لينظر فى هذه المحنة المحيقة به ، وهذا البلاء الموكل بآماله ، ثم ينظر مرة أخرى فى نفسه ، فلا يعرف لهذا الذى يحيق به مأتى . لكأنما كانت حياة أبى تمام نوعاً من «الطباق» ، كما كان فنه الشعرى ، فرضته الحياة على شخصه ، فذهب هو يفرضه على شعره ؛ ولكأنما كان هذا الاحساس بالتناقض فى الحياة ، وقد جعل يلح عليه ، هو الأصل فى ذلك اللون الفنى الذى فتن به ، وانصرف إلى الافتنان فى إسباغه على شعره .

وقد لجأ أبو تمام فى محنته هذه إلى التنفيس عن نفسه بالشعر ، يسلى بصناعته من ناحية ، وينفث فيه همومه وآلامه من ناحية أخرى ، فلم يعد يقصر القصيدة على معاتبة عياش وتوجيه الحديث اليه ، بل جعل — إلى جانب ذلك — يستروح بالحديث إلى نفسه وتأمل ما عرض لها فى حياته الماضية والحاضرة ، ونرى صورة صادقة من هذا الاتجاه فى قصيدته الرائية :

«صدقت لما قلبي المستهتر» ، إذ يقول فيها — مثلا — بعد أن يعرض جانباً من ذكريات صباه ، وان لهذه الذكريات مكانها فيما يرجوه من تنفيس واستراح :

ورأت شحوباً رابها فى جسمه	ماذا يريبك من جواد مضمر
غرض الحوادث ، ماتزال ملمة	ترميه عن شزن بأم حبوكر
مدكت به الأقدار ، حتى انها	لتكاد تفجؤه بما لم يقدر
ماكع عن حرب الزمان ورميه	بالصبر ، الا انه لم ينصر
ما إن يزال بحد حزم مقيل	متوطئاً اعقاب رزق مدبر

وما أروع ذلك تعبيراً عن الضيق الذى يأخذ بأكظامه ، وتصويراً للاضطراب الذى يغشى حياته النفسية ، وشعور التناقض الذى يلح عليه ، بين ما يتذرع به من أسباب الظفر والسبق ، وما تفرضه الحياة عليه من الهزيمة والتخلف .

ثم يأخذ أبو تمام من ذلك فى محاولة صرف عياش عن موقفه منه ، فى أسلوب بين التلطف والشدة التى تحاذر أن تشتد . ولكنه فى خلال ذلك لا يفوته التعبير عن شعور الاعتداد بنفسه والامتنان بشعره ، وأن عطاء الممدوح مردود عليه ثناءاً مضاعفاً ، يرى بذلك انه يحقق شخصيته إزاء ممدوحه ، كما يحسب بذلك انه يثير الممدوح وينهضه ويرده اليه ، ولا يعلم المسكين أى أثر سيء تتركه هذه اللهجة فى نفس عياش ، فهو لا يزداد الا اعراضاً عنه وتجاهلا له . وتكاد نفس ابى تمام تتميز غضباً وغيظاً ، ولكنه يمسك نفسه المتميزة ، ويربط على مشاعره الثائرة المتفجرة ، ويحبس لسانه الذى يوشك أن ينطلق بعبارات الحفيظة والسخط والموجدة ، فهو ما يزال يرجو العائدة ، كما يصور ذلك إذ يقول فى قصيدة أخرى :

قلبت أمرى فى بدء وفى عقب	ورضت حالى فى جور ومقتصد
فما فتحت فى إلا كعمت فى	وما مددت يدى إلا رددت يدى

وهكذا بلغت الحيرة النفسية بأبي تمام ذلك المبلغ الشاق المؤلم ، فما يدرى بعد أى صنيع يصنع وأى سبيل يسلك ، وأى وجهة يوليها . على انه على أى حال يريد أن ينتهى إلى حد فاصل يقر عليه أمره ،وتنقضى به هذه الحيرة ، فاما رجاء محقق خليق أن ينتهى إلى غايته ، واما يأس مطلق يفضى إلى نوع من الراحة والطمأنينه . فهو يهيب بعياش فى هذه القصيدة قائلا :

قل قولة فيصلا تمضى محكومتها ... فى المنع ان عن لى منع أو الصفد
محصن بها سندى ، أو يمتنع عضدى ... أو يدنلى أمدى ، أو يعتدل أودى
أو التى طالما أفضت وعورتها ... من الأمور إلى منهاجها الجدد

ولكنه لا يكاد ينتهى إلى هذه العبارة الهادئة عن نفسه الموجعة وجيعة الحيرة والقلق ، والوقفة الطويلة فى مفترق الطرق ، حتى تهيج به كبرياؤه الجريحة ، فاذا به يصيح بعياش قائلا ، فى لهجة أشبه بان تكون لهجة توعد وتهدد ، تنتفض بالثورة المكبوته . وهى على كل حال لهجة مغيظ محنق بلغ غاية جهده فى كظم غيظه وامساك غضبه وحفيظته :

ان كنت فى المطل ذا صبر وذا جلد ... فلست فى الذم ذا صبر وذا جلد
فقل وراءك ، فى حق وفى بعد ... فانى فيك أهل السحق والبعد

وكانت هذه الصيحة اليائسة آخر ما قاله — فيما نقدر — مما ينم بسمة العتاب ، وتغلب عليه روح التجمل والابقاء . وهكذا فرغ من الحيرة والقلق ، إذ صرح له أمره على حقيقته ، ولم يعد هناك موضع لتعلله بها ، فاطمأن إلى أحدى الراحتين ، كما يقال . وكأنما أخذته الانفه من هذه الضراعة ، ومما كان يستشعره فى موقفه ذلك من هوان وضعة ، فأنهى ذلك الموقف بهذه الصيحة . وبذلك انتهى من هذا الدور ، دور العتاب ، أو دور العلاقة الواهية المضطربة ، لتدخل علاقته بعياش فى دورها الثالث ، دور القطيعة البائنة ، يمثلها فى ديوانه الهجاء الصريح الذى لا تجمل فيه ولا مواربة ولا تلميح .

هذه هي القصائد والمقطوعات التي قالها أبو تمام — على ما جاء في ديوانه — في هجاء عياش بن لهيعة ، حين ضاق بالتماس الوسيلة إلى رضاه عنه واجتنابه اياه ، فاندفع مع شاعريته يهجوه هجاء يعبر عما كان يملأ نفسه من مرارة وما كان يتضرم فيها من سخط وألم .

وكما رأينا ابا تمام بدأ عتابه عياشاً هيناً ليناً متأنياً مترفقاً ، كذلك نرى هذه الظاهرة هنا في هجائه ، إذ نراه يبدؤه في القصيدة التي افترضنا أنها أولى قصائده في هذا الدور الثالث ، في هدوء واناة وطمأنينة . كأنما يتأمل بشعره تأملا ، ويتحدث إلى نفسه حديثاً رفيقاً ، لا ثورة فيه ولا عنف كالذي سنلاحظه بعد في هذا الشعر ، وكأنه حين انتهى من تلك الحيرة التي كانت تأخذ عليه سبيله ، وكانت تعبث بحياته النفسية أشد العبث وتكيد لها أشق الكيد ، وتفرض عليها ألواناً من الجهد والمعاناة ، وحين بلغ من ذلك حالة اليأس ، أخذ يستشعر شيئاً من الروح ، كالمكدود حين يصل الى نهاية الشوط فلا يكون من همه الا أن يجلس ليستريح ، وكذلك كان صاحبنا . فما إن بلغ تلك الغاية حتى انتحى بنفسه ناحية يستريح ويتأمل أمره ويستعرض ما مر به . ولا مكان بطبيعة الأمر في تلك الحال لشيء من الثورة والانفعال .

وهكذا نراه في هذه القصيدة التي اشرنا اليها هادئاً أو كالهادىء ، متمهلا متأنياً ، تغلب عليه روح ادنى إلى الحزن والأسى ، وهو يتحدث فيها عن نفسه حديثاً تشعر فيه شعوراً قوياً بالحزن الهادىء أو الهدوء المحزون وهو يكاد يرجع عليها باللائمة في خيبة الأمل التي حاقت به ، إذ يسترجع ماضيه مع عياش ، ويتأمل ذلك الرجاء الذي عقده به زمناً ، ثم لم يلبث أن انهار وتبدد وتلاشى :

رجاء حل من عرصات قلبي ... محل البخل من قلب البخيل
ورأي هز حسن الظن حتى ... جرى ماءاه في عرضي وطولي
فأجدى موقفي بدراك جدوى ... وقوف الصب في الطلل المحيل

وأعكفت المنى فى ذات صدرى ... عكوف اللحظ فى الخد الأسيل
وكنت أعز عزا من قنوع ... تعرضه صفوح عن جهول
فصرت اذل من معنى دقيق ... بـه فقر إلى فهم جليل
فما أدرى : عمای عن ارتيادى ... دهانى ، أم عماك عن الجميل ؟

هذه هى الروح السارية فى القصيدة ، روح أدنى إلى الهدوء وأقرب إلى الحزن . وكأنه لم يكن يقصد فيها إلى الهجاء قدر ما كان يقصد إلى التسرية عن نفسه والتنفيس عن همومه ، والتعزى عن آلام الخيبة التى منى بها فى علاقته بعياش ، وهى خيبة لا ترجع — فى رأيه — اليه هو ، وانما ترجع إلى ذلك الرجل الذى ارتبط به ، وعقد به اسبابه ، ثم لم يلبث أن انكره ، كما ترجع إلى موضعه من حوله ، بالمعنى الذى يشير اليه بقوله إنه صار «اذل من معنى دقيق ، به فقر إلى فهم جليل» ، واذن فليس يعدو هذا الهوان الذى يعانيه أن يكون أمراً طبيعياً بالقياس إلى رجل مثله ، يعيش بين قوم لم تهيأ نفوسهم لفهمه ، كالمعنى الدقيق الذى لا يجد فهماً قوياً نفاذاً يجليه .

لم يكن بأبى تمام — فيما يظهر — أن يهجو عياشاً إذ ذاك ، فقد كانت حالته النفسية على ماوصفنا ، ومن ذلك جاءت هذه القصيدة وليس بها من معانى الهجاء الا تلك التعريضات والغمزات العارضة ، تجىء فى سياق تأمله حالته ونظره فى أعطاف نفسه ، والا ذلك التهديد والوعيد ، يصدر عما يختفى وراء ذلك الحزن الهادىء من ثورة كامنة تأبى الا أن يكون لها مظهرها فى خلال تلك القصيدة . فهو مرة يقول لعياش فيها :

أعياش ! ارع أولا ترع حقى ... وصل أولا تصل ابداً وسيلى
أراك — ومن أراك الغى رشداً — ... ستلبس حلتى قال وقيل
ملاحم من لباب الشعر تنسى ... قراة ابيك كتب أبى قبيل

ومرة أخرى يوجه اليه الوعيد على هذه الصورة :

رويدك ! إن جهلك سوف يجلو لك الظلماء عن خزى طويل
وأقلل ، إن كيدك حين تصلى بنيرانى أقل من القليل

هذه هى الحالات النفسية التى كانت تغلب على أبى تمام فى هذه الفترة التى تعبر عنها هذه القصيدة . ومن ذلك جاءت وكأنما هى تمهيد لهذا الدور الثالث من أدوار علاقته بعياش . وكأنه كان يروض نفسه على ذلك المنهج الذى يريد أن يصطنعه ، ويرود ذلك الطريق الذى لم يتح له من قبل أن يسلكه. وانما مرجع الأمر — فى الحقيقة — إلى تلك الحالة النفسية التى رأيناها .

ولكن هذه الحالة قد انتهت بانتهاء هذه القصيدة ، وأخذت تلك الثورة الكامنة التى رأيناها تطل برأسها ثم تختفى ، تترك مكانها وتبرز فى الميدان صاخبة مجلجلة . وكذلك جعل أبو تمام يظهر لنا بعد تلك القصيدة وقد فارقته تلك الأناة ، ومضى عنه ذلك الترفق ، فهو مندفع فى عنف عنيف وصخب صاخب ، لا يبالى شيئاً . قد ركبه شيطان الغضب ، واستولت عليه الرغبة العارمة فى أن يثأر لنفسه المكلومة ، وكبريائه الجريحة ، وآماله المخيبة المردودة . وبينما نراه فى تلك القصيدة التى وقف بها على رأس سبيله تلك الجديدة طويل النفس إلى حد ما ، قد بلغ بها الثلاثين من الأبيات وتجاوزها نرى شعره بعد ذلك ضربات قصيرة ، لانكاد تبدأ حتى تنتهى ، فهى مقطوعات تتراوح بين الثلاثة الأبيات والاثنى عشر ، لا يكاد يتجاوزها ، فهو فيها لا يصنع ولا يتمهل ولا يروى ولا يتأمل ، فالثورة التى يضطرب بها صدره لا تدع له سبيلا إلى شىء من ذلك ، فليس الأمر يعبر عن انفعالاته الثائرة ، ويستجيب لتلك الجروح التى ماتزال تنفر فى احشائه ، وتصرخ منها مشاعره .

ذلك هو الطابع العام لتلك الأهجيات ، وذلك هو الأثر الأول الذى تتركه فى نفوسنا عند قراءتها .

فاذا انتقلنا من ذلك إلى الموضوعات التى اتخذ منها أبو تمام مادة لأهاجيه

بدا كأن أبرزها هو عربية عياش بن لهيعه ، وانكار ابى تمام لهذه العربية ، وتفننه فى ذلك ألواناً من التفنن ، وذهابه فى تصويره المذاهب المختلفة .

وقد كانت مصر تعانى فى ذلك الوقت فتنة شديدة بين عنصرى أهلها : العنصر الفاتح وهو العنصر العربى ، والعنصر الأصيل وهو العنصر القبطى ، واضطرب جو مصر بهذه الفتنة ، وكان من آثارها أو مظاهرها أن أخذ كثير من القبط يحاولون الانتفاء من قبطيتهم ، ويلتمسون تصحيح أنسابهم كما كانوا يقولون . ولكن الأمر لم يقف عند ذلك ، فقد أخذ العرب لقاء هذه المحاولة ينكرون عليهم ما يذهبون اليه من ذلك ، ويتهمون القضاة الذين آزروهم ، كما نجد شرح ذلك عند الكندى فى تبسط واستيفاء (١).

وقد شارك الشعر فى التعبير عن هذه الفتنة وترديد اصدائها مشاركة كبيرة ، فكان ذلك الموضوع من الموضوعات التى لج فيها الشعراء المصريون فى ذلك الوقت لجاجاً ظاهراً ، فلا جرم كان من الطبيعى أن يتأثر أبو تمام بذلك الجو الذى يعيش فيه وهو بصدد هجاء عياش ، فيكون أول ما يخطر بباله من معانى الهجاء أن ينكر عليه عربيته ، أو أن يضع هذه العربية موضع الريبة ، فى ذلك الجو الذى يموج بالريبة فى عربية هذا أو ذاك من الناس ، وأن كثرت إشادته من قبل بيمنيته التى اتخذها وسيلته اليه وشفيعه لديه ، كما يبدو ذلك واضحاً فى الشعر الذى مدحه به ، ثم بعد ذلك فى الشعر الذى جعله فى عتابه . بل انه فى قصيدة الهجاء الأولى التى عرضنا لها منذ قليل لم يحاول أن ينفى عنه عربيته أو يمنيته ، بل يقرها ويثبتها له ، حتى فى سياق ذمه والتعريض به والتشهير ببخله ، وذلك اذ يقول :

كلا أبويك من يمن ، ولكن كلا أبوى نوالك من سلول

فهو عربى يمنى إلى ذلك الوقت . وقد رأينا من قبل حقيقة موقفه فى تلك القصيدة .

(١) الولاة والقضاة ، ص .

ولكنه ما يكاد يأخذ سبيله فى هجاء عياش حتى يكون موضوع عربيته هو المادة الأولى له .

ولكنا نلاحظ انه إذ يتناول هذا الموضوع يتدرج فى طريقة تناوله ، من التعريض إلى التصريح ، ومن الانكار الساذج إلى توليده والافتنان فيه ، حتى لنستطيع أن نتخذ من هذا التدرج الواضح اداة تعيننا على ترتيب هذه الاهاجى ، بوضع كل منها فى موضعها بالنسبة إلى غيرها .

فهو يعرض به أولا تعريضاً خفيفاً ، إذ يقول :

ومالى أهجو حضرموت ؟ كأنهم أضاعوا ذمامى ، أو كأنك منهم

وهو فى هذا البيت يكتفى بنفى حضرميته عنه ، دون أن يتعرض لعربيته ولكنه لا يلبث أن يقول :

بنى لهيعة ، ما بالى وبالكم ؟ وفى البلاد منا ديح ومضطرب
لحاجة فى فيكم ليس يشبهها إلا لحاجتكم فى أنكم عرب

فينكر عليه بذلك العربية اطلاقاً ، ولا يكتفى بالانكار الساذج ، بل يصوغه صياغة لاذعة ، ويورده فى سياق ساخر ، إذ يقرر ان فى ادعاء عياش العربية لحاجة لا تصل به إلى شىء ، كما لم يصل هو إلى شىء حين لج فى التعلق به ، وعقد الأمال عليه .

وكأنما قد انفتح بذلك أمام أبى تمام سبيل واسعة رحيبة فى العبث بعياش والتندر به والسخرية منه ، مستلهماً الجو الذى حوله ، فهو يمضى فيها ويوغل فى شتى مسالكها . يولد من ذلك المعنى شتى التوليدات ، ويفرع عليه مختلف التفريعات ، إذ كانت تلك المعانى والصور التى يصوغ أهجياته منها حية متصلة بالبيئة التى يعيش الرجلان فيها أشد الاتصال ، مشتقة من تلك الحالة التى كانت تسود المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، وتشغل من الأذهان حيزاً كبيراً ، فقد كان من الطبيعى أن تأخذ سبيلها مباشرة إلى مدارك الناس وأخيلتهم ، وبذلك كانت — ولاريب — من أخطر ألوان الهجاء أثراً ،

وأوضحها ميسما ، وأكثرها تحقيقاً للغاية التي اتجه الشاعر اليها . فقد استطاع بهذه المادة التي اتيحت له أن يضع من صاحبه ويحيطه عند الناس بجو يضطرب بالريب والشبهات ، ويجعله عندهم مثار التندر والعبث والسخرية ، وأن يثأر بذلك لنفسه المكلومة أشد الثأر وأروعه لها .

وإذا كان أبو تمام قد لج في الاتصال بعياش وعقد نسبه به — كما يقال له ويعير هو به — فهاهو ذا عياش يلج في الانتساب إلى العرب ، وكلا اللجاجتين شيء بغيض ، إلى انه باطل لا معنى له وينبغي الا يتشبث به أمل . وإذا كان قد اتجه اليه يرجو نائله ، وكان ينبغي أن يعلم أن ذلك باطل لا جدوى فيه ولا محصول له ، فذلك أشبه شيء برجاء عياش « العلا » حين يتوسل اليها بادعاء العرب وهو في حقيقة أمره قبطي صميم القبطية ، يتنامى أصله الذي جاء منه ، وكورته التي يرجع اليها بنسبه :

ورجوت نائلكم رجاء كم العلا ... بتذكر العلجان واليعضيد
ونسيت مسوء فعالكم نسيانكم ... انسابكم في كورة البشرود(١)

ويالها من سخرية لاذعة ، لقد جعله ينسى نسبه ، وقد خلفه وراءه في «كورة البشرود» وأراد أن يصوره في صورة من ذهب به الحرص على الانتفاء من اصله مذاهب الغفلة ، إذ يظن أنه يتركه تلك الكورة . وبنسيانة ذلك النسب ، وقد خلع عنه قبطيته وتجرد من آثارها . وهيهات أن يبلغ بذلك النسيان شيئاً ، فلئن نسي نسبه فان نسبه لاينساه ، فذلك شيء لاسبيل إليه ، ولن يحاول أن يتجرد من آثار الجنس الذي ينتمي إليه فان آثار ذلك الأصل ما تزال قائمة به ، مصرفة حيته .

هيهات ! خف إلى الغايات لاحقها ... سبقاً ، واثقلك الحالوم والصير (٢)

---

(١) البشرود — كما يقول ياقوت — «كورة من كور بطن الريف في مصر من كور أسفل الأرض» (معجم البلدان ٢ : ١٩٠) .

(٢) الصير والحالوم كلمتان مصريتان قديمتان ، ولاتزالان مستعملتين في أفواه بعض العامة إلى اليوم .

وأخيراً بلغ أبو تمام من ذلك التهكم المرير والسخرية اللاذعة فى استغلاله ذلك المعنى وتوليده مبلغاً بعيداً ، فى قصيدته الميمية ، حيث يقول :

لما بدا لى من صميمك ما بدا ... بل لم يصب لك — لا أصيب — صميم
جردت فى ذمك خيل قصائد ... جالت بك الدنيا ، وأنت مقيم
الحقن بالجميز أصلك صاغراً ... والشيح يضحك منك والقيصوم
طبقات شحمك ليس يخفى أنها ... لم يبنها آء ولا تنـــوم
ياشـــاربا لبن اللقـــاح تعرباً ... الصير من يفنيـــه والحـــالوم
والمدعى صـــوران منزل جـــده ... قل لى : لمن اهناس والفيوم ؟

ومثل هذه الأبيات استطاع أبو تمام أن ينتصر لنفسه ، وقد وجد فى هذه الفتنة الشاملة التى كان المجتمع المصرى يضطرب بها فى ذلك الوقت مادة حاضرة مهيأة يصوغ منها هذه الصور ، كما أنها أتاحت له أن يجعل من أهجياته هذه شيئاً حياً ، لا يكتفى بان يحيط عياشاً بالريب فى مسألة خطيرة كهذه المسألة ، وانما يجعله إلى جانب ذلك موضع عبث وسخرية مريرة لاذعة ، تجد مكانها دائماً فى المجالس والمجتمعات . فهاهو ذا رجل من الرجال المرموقين ما يزال يجهد أشد الجهد ، ويصطنع كل وسيلة ، حتى يبدو عربياً ، ويعرفه الناس من أهل البادية . رجل سمين مكتنز الشحم طبقة فوق طبقة ، انى له ان يكون من هؤلاء الذين طعامهم الآء والتنوم ، مما لا يزال يلهج به ليعد من أهله ، كما يشرب ولبن اللقاح من أجل هذه الغاية ، وانما الصير والحالوم طعامه ، نشأ عليهما فى اهناسيا والفيوم ، لاصوران التى يزعمها منزل اسرته .

وأبو تمام باثارته هذه الطائفة من المفارقات فيما يصور من حياة عياش ، وهذا التناقض بين حقيقته ودعواه ، وابراز ذلك فى مثل هذا الأسلوب الساخر ، جدير بأن يثير الضحك ، وهو يزعم ، ساخراً ، انه يمثل هذا قد رده إلى أشجار الجميز التى يجهد فى الانتفاء منها ، وترك الشيح والقيصوم يقهقهان سخرية منه .

على أن اضطغان ابى تمام على عياش وحقده عليه كان أكبر من أن ينهه أو يستكين ، انها حفيظة شاب حاد العاطفة ، عصبي المزاج ، ممتلىء غروراً بنفسه ومغالاة بقدره ، وشاعر متوقد القلب مشبوب الخيال معتد بمكانه الشعرى ، أصيب من حيث كان يرجو ، فثارت به حقوده فلم يملك كبحها فاتخذ الهجاء يبثه آلامه وأحقاده . وكأن الأمر لم يلبث أن اتخذ فى نفسه صورة فنية . وهنا جعلت المثل الشعرية القديمة التى يقدمها اليه شيوخ الشعراء من أصحاب الهجاء الذين يروى أشعارهم ويتحفظها ويدرسها ، كجرير مثلا ، تدفعه فى تلك السبيل ، وتحفزه على الافتنان والتوليد .

ويظهر انه حين وقف من عياش ذلك الموقف ، ونصب نفسه لهجائه والتشهير به ، وانفتح له ذلك الميدان من ميادين الشعر العربى ، جعل يعارض نفسه بأولئك الشعراء الذين كانوا يثأرون لأنفسهم بقوافيهم ، والذين اتخذوا من الهجاء فناً عرفوا به ، فها هو ذا يسير فى سبيلهم ، ويحذو حذوهم ، ويأخذ مأخذهم . وان كان قد وجد معانى الهجاء مشاعة عليه مما يمور به الجو حوله واستطاعت شاعريته أن تنهل منها ، على الصورة التى رأيناها . ولكنا لا نستطيع أن نغفل هذا العامل من عوامل توجيهه وإمداد شاعريته فى هذه المرحلة . ولعلنا نستطيع أن نلمح ذلك من خلال هذا البيت الذى يجىء فى احدى قصائد هذا الفن من فنون شعره فى هذه الفترة :

وبقيت ، لولا انني فى طيء علم ، لقال الناس : انت جرير[1]

فلم يجىء «جرير» هنا اعتباطاً ، أو لأنه قعد فى طريق القافية كما يقولون ، بل لأنه كان من المثل الشعرية التى كان أبو تمام معنيا فى هذه الفترة خاصة بمدارستها وتحفظ آثارها .. وقد ظلت تراوده وتوجهه فى ذلك الهجاء الذى وقف نفسه عليه إذ ذاك أو كاد .

---

(١) الديوان ص ٢٧٩

ولقد ظل هذا الحقد الذى امتلأت به نفس أبى تمام على عياش مضطرباً فيها لا يكاد يجد سبيلا إلى الهدوء ، كما ظلت تلك الرغبة الفنية فى رسم تلك الصور وصياغة ذلك الشعر مسيطرة عليه مستبدة به ، وكأن ماوآه من قدرته على ذلك الفن ، وما خيل اليه من نجاحه فيه ، كان مماضراه عليه ، فمضى فيه حتى بعد أن قضى عياش نحبه ، فلم يحل موته بينه وبين الاستمرار فى هجائه بل ظل مندفعاً فى تلك السبيل ، بل لقد اتخذ من موت عياش موضوعاً جديداً يستوحيه طائفة من المعانى والصور الجديدة ، يبنى عليها هجاءه ، ويزيده بها إقذاعاً وحدة .

وقد حفظ لنا الديوان مما جاء من هذا القبيل قصيدتين اشرنا من قبل اليهما بين مجموعة قصائد الهجاء ، وان كانت احدى هاتين القصيدتين مقدمة فى الديوان الذى بين أيدينا على أنها مما قال أبو تمام فى هجاء مقران المباركى وهى قوله :

لا سقيت أطلالك الدائرة ولا انقضت عثرتك العاثرة

ولكن نظرة فاحصة فى غير كثير من الالحاح ، ومقارنة هذه الابيات مما جاء من شعر أبى تمام فى هجاء مقران ، لا تكاد تدع لدينا شكاً فى خطأ ذلك التقديم ، وأن شيئاً من الخلط قد عرض له وداخله ، فوضع «مقران» موضع «عياش» . أما تصحيح هذا الخطأ ، ورد القصيدة إلى من قيلت فيه ، فانما نرجع فيه إلى رواية ابن عبد ربه (١) ، فقد أورد ابياتاً منها وقدمها على انها فى عياش ، وكذلك يفعل البديعى (٢) .

وهذا المذهب الذى ذهبنا اليه يؤيده عندنا ما أشرنا اليه من المخالفة بين الروح التى كانت تملى على أبى تمام هجاءه عياشاً ، والروح التى كانت تملى عليه هجاءه مقراناً المباركى .

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٣٣٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بابى تمام ص ١٧٩ .

على أن الأمر فى هذا اللون من الهجاء، وهذا المسلك غير الكريم الذى سلكه أبو تمام فى تعقب عياش بالهجاء بعد موته، يرجع — فيما يخيل الينا — إلى شىء آخر غير ما رأينا ، وهى تلك المثل الشعرية القديمة التى أخذ نفسه فى هذه الفترة — كما قلنا — بدراستها واحتذائها ، فهى مسؤولة أيضاً — إلى حد ما — عن ذلك ، فقد سلك جرير من قبل مثل ذلك المسلك، وجرير كان — كما قدمنا — من أول المثل الفنية الماثلة أمام أبى تمام، فقد مضت به خصومة الأخطل إلى حد أنه لم يعف عن هجائه بعد موته، إذ نرى فى ديوانه هذه القطعة يهجوه بها بعد أن قضى نحبه ، وهى التى يبدؤها بقوله :

زار القبور أبو مالك فكان كالأم زوارها (١)

فلا على ابى تمام أن يحذو حذو أستاذه ، ويسير فى السبيل التى سار فيها قبله .

وهكذا انتهى أمر أبى تمام مع عياش بن لهيعة ، وانتهت هذه المرحلة من تاريخ شاعريته .

١٠

كنا نتوقع خلال خلة الهجاء التى شنها أبو تمام على عياش بن لهيعة، متصلة محتدمة ، أن نسمع صوتاً آخر يتجاوب مع صوته ، ويتبادل الهجاء معه فنرى واحداً — على الأقل — من شعراء العصر المتصلين بعياش ، والحاقدين على أبى تمام ، يدفع عن عياش وينافح من دونه ، ويشتبك مع ابى تمام لينال منه ويرده على أعقابه . فتلك هى الصورة التى تفرضها طبيعة الأشياء فى مثل ما نحن فيه .

---

(١) ديوان جرير ، ص ٢٠٢ ، ط الصاوى ١٣٥٣ هـ

ولكن غموض هذه الفترة الذى يرجع إلى قلة العناية بتدوين أخبارها، وخاصة مظاهر الحياة الأدبية فيها ، ثم تعرض مادون من هذه الأخبار للضياع أو الاغفال، بسبب بعد مصر عن مركز الحياة الأدبية ، قد تركنا نعانى كثيراً من اضطراب الصور واقتضابها ، وبذلك لم نتمكن من معرفة الحقيقة الكاملة عن هذه الخصومة التى شبها أبو تمام على عياش ووجوهها الأدبية المختلفة . إذ كنا لا نكاد نشك فى أن هذه الخصومة الأدبية كانت ذات وجهين ، وان الطرف الآخر كان له ما يمثله فيها ، وان ضاعت أخباره ، وتقطعت الوسيلة اليها .

ولاريب أن أبا تمام لم يسلم من التعرض لهجاء بعض الشعراء المصريين له. ولسنا نقول ذلك استنتاجاً وتمشياً مع طبيعة الأشياء، ولكنه هو نفسه يشير فى بعض شعره إلى مناقضة هؤلاء الشعراء ومهاجاتهم له، وانتصاره عليهم، وذلك إذ يقول :

وعاو عوى ، والمجد بينى وبينه ... له حاجز دونى وركن مدافع
ترقت مناه طود عز لو ارتقت ... به الريح فترا لانثنت وهى طالع

فأكبر الظن انه يعنى هنا شاعراً قصد اليه بالهجاء . ولكنه لا يلبث أن يصرح بذلك فى هذه القصيدة ، إذ يقول :

فكم شاعر قد رامنى فقلعته ... بشعرى فاسى وهو خزيان ضارع
كشفت قناع الشعر عن حر وجهه ... فطيرته عن فكره وهو واقع
بغر يراهما من يراهما بسمعه ... ويدنو اليها ذو الحجا وهو شاسع
يرد وداداً أن اعضاء جسمه ... إذا أنشدت شوقاً اليها المسامع (١)

وإذ كانت هذه الأبيات من قصيدة قالها فى مصر — كما سيجىء القول — فان فيها دليلا واضحاً على أن أبا تمام خاض طائفة من المعارك الأدبية

(١) ديوان أبى تمام ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

مع بعض الشعراء المصريين ، وان كنا لا نستطيع أن نتبين أكثر من هذه الدلالة : فنرى من هم هؤلاء الشعراء الذين كان يهاجيهم ، وفيم كانت هذه المهاجاة ، وعلى أى صورة انتهت .

وإلى جانب ذلك نجد الرواة يذكرون أن مهاجاة نشبت بين ابى تمام وبين الشاعر المصرى يوسف السراج ، ثم زادوا على ذلك أن أبا تمام هزم فى هذه المهاجاة ، وأنه من أجل ذلك يعد من الشعراء المغلبين .

على أنه لم يبق لنا من أخبار هذه المهاجاة الا هذا الخبر المقتضب ، كما لم يبق لنا من مادتها الا ما يمثل الطرف المغلب الذى لم يابث أن أفحم وغلب على أمره ، كما يزعمون عن أمر أبى تمام فيها . أما يوسف السراج ، صاحب الغلبة فى هذه المعركة ، فقد ذهب ما يصوره ويمثل جانبه فيها ، فلم يبق لنا من شعره فيها — كما لم يبق لنا من أخباره وصور حياته عامة — شىء

ولكنا لا نملك القول بأن هناك صلة بين هذه المهاجاة التى نصوا على نشوبها بين أبى تمام ويوسف السراج ، وبين تلك الأبيات التى أوردناها ، فلا نستطيع بذلك أن ندعى أن ذلك «الشاعر» الذى أشار اليه أبو تمام فيما هو يوسف السراج هذا ، فأكبر الظن أن أبا تمام تعرض فى مصر لاكثر من هجاء ، وواقف فيها أكثر من شاعر ، كما نرى فى قوله : «فكم شاعر قد رامنى فقذعته...» . وان كان الأمر فى مثل هذه الصلة يمكن أن يدخل فى باب الاحتمال . وكذلك لا نملك القول بأن هذه المهاجاة بين أبى تمام ويوسف السراج كانت بسبب من ذلك الهجاء الذى شنه أبو تمام على عياش ابن لهيعة ، وأنها كانت وجهاً من وجوه هذه الخصومة التى اندرس معظم آثارها ؛ وإن كان ذلك أيضاً من الفروض المحتملة ، ولكن لا دليل عليه ، ولا شبهة تنزع بنا إليه . وليس فى الشعر الذى بقى من آثار المعركة الأدبية بين أبى تمام ويوسف السراج — وهو كما قلنا من شعر أبى تمام وحده — أدنى اشارة يمكن أن نعتمد عليها فى هذا .

وقد بقي لنا من هذا الشعر قصيدتان : بائية وجيمية ، أما أولاهما فيبدؤها بقوله :

أيوسف ، جئت بالعجب العجيب ... تركت الناس في أمر مريب (١)

وأما الأخرى فهذا مطلعها :

أسلك ! بل استمك لوقع هجاجي ... فلتأمن عذوبتي وأجاجي (٢)

وتكاد تكون هاتان القصيدتان المصدر الوحيد لنا في تعرف يوسف السراج ، وتصور شيء من جوانب شخصيته، بل لعلنا نستطيع القول بأنها القصيدة الأولى وحدها التي يمكن أن نجد فيها ما قد يلقي بعض الضوء على هذه الشخصية . وفيها يقول أبو تمام ما يمكن أن نستنتج منه أن يوسف السراج كان شاعراً عالماً ، من هؤلاء الذين أخذوا أنفسهم بقراءة علوم الأوائل التي بقيت مصر تردد أصداءها حتى غلب عليه ذلك وظهر أثره في شعره ، فجاء من أجل ذلك غامض المعنى مستهلك العبارة ، جافاً لا ماء فيه ، ولا رونق له . وذلك اذ يقول أبو تمام يصف شعره بهذا الأبيات التي مازال علماء الشعر يلوكونها ويمضغونها :

فلو نبش المقابر عن زهير ... لصرح بالعويل وبالنحيب
متى كانت معانيه عيالا ... على تفسير بقراط الطبيب؟
وكيف ؟ ولم يزل للشعر ماء ... يرف عليه ريحان القلوب

فهذه احدى صفتي شعر يوسف السراج في اعتبار ابي تمام وتقديره. ومهما يكن من أمر الخصومة وما تحمل عليه من الرغبة في التشويه ، فالأصل الذي استنتجناه باق صحيح .

---

(١) الديوان ، ص ٢٦٩ .

(٢) الديوان ، ص ٢٧٢ .

وأما الصفة الأخرى فهي مجانبته الألفاظ المألوفة وميله إلى الغريب يستعمله في شعره ، على ما جاء في كلام ابي تمام عنه في هذه القصيدة إذ يقول :

فـالك بالغريب يد ، ولكن تعاطيك الغريب من الغـريب

وإذن فقد كان يوسف السراج من هؤلاء الذين انحرفوا بالشعر عن سبيله المرسومة منذ عهد «زهير» كما يقول أبو تمام ، أو أنه كان بعبارة أخرى من أول الذين خرجوا على «عمود الشعر» المعروف ، وذهبوا به مذهباً جديداً في تكلف المعاني والصور والألفاظ ، واقحام معاني الأوائل عليه ، أو التأثر بها في تكوين صوره وصياغة عبارته ، «والميل إلى الصنعة» والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة «على حد تعبير الآمدي في صفة شعر ابي تمام نفسه . وكذلك كان يفعل في ألفاظ شعره ، إذ يترك الكلمات المألوفة المتعارفة ، التماساً للغريب .

فهذه بعض الخصائص الفنية لشعر السراج كما يمكن أن نستنتجها مما يريد أبو تمام أن يقدمه الينا عنه في هذه القصيدة ، وتلك هي بعض ملامح شخصيته ، شخصية رجل عالم شاعر ، يخضع الشعر للعلم ويطعمه به .

وأما القصيدة الثانية الجيمية فليس فيها الا صور من الهجاء الفاحش المقذع يقذفه أبو تمام غير متجمل ولا متورع . وكما رأينا المثل الشعري من جرير ماثلا في خاطر أبي تمام في هجائه عياش بن لهيعة بعد موته كذلك نرى هنا هذا المثل في ذلك الأسلوب الذي اصطنعه في هجاء يوسف السراج ، فقد تأثر — فيما يبدو — أستاذه في الافحاش فأفحش ، وجاءت قصيدته هذه مجموعة من المثالب المكشوفة العارية . ولعل هذه هي المحاولة الأولى من أبي تمام لهذا اللون من الشعر ، ثم نراه بعد كثيراً في شعره ، في نحو مقران المباركي .

١١

ماذا كان من أمر أبي تمام بعد أن أعرض عياش عنه ، ومنعه ما تعود أن يجريه عليه ويرفده به ؟ أما انه ليس لنا في هذا الموضع إلا أن نرجع

إلى الديوان تعرف ما عنده ، ونحاول أن نستشف ما عسى أن يكون من ذلك فيه ، على الرغم مما نحن على يقين منه من أن شعر أبي تمام قد ضاع منه قدر غير قليل . وخاصة مما قاله في فترة مقامه بمصر ، وأن الديوان لا يمثل حياته الأدبية فيها تمثيلا شاملا دقيقاً .

والواقع أننا حين نرجع إلى الديوان نراه لا يصرح بشيء في جواب هذه المسألة تصريحاً يطمأن اليه . ولكننا مع ذلك نستطيع بشيء من مد البصر واستبطان الكلام أن نلمح فيه بعض الاشارات الخاطفة التي قد تدل على أن أبا تمام اتجه ، حين فترت الصلة بينه وبين عياش ، إلى قوم غيره يمدحهم ويلتمس رفدهم ويستعيض بهم ، وذلك في إحدى قصائده التي يعاتب بها عياشاً ويستعطفه ، إذ يقول :

..ثم انصرفت إلى نفسي لأظأرها	إلى سواكم ، فلم تهشش إلى أحد
ومدح من ليس أهل المدح أحسبه	روحي تفصل من قلبي ومن جسدي
قوم إذا أعين الآمال جانبهم	رجعن مكتحلات عاثر الرمد
وطلعة الشعر أقلى في عيونهم	وفي قلوبهم من طلعة الأسد
ما أن ترى غير منشور على فنن	في الناطقين ومطوى على حسد (١)

فقد اتجه أبو تمام إذن إلى غير عياش ، وحاول أن يعقد صلته به ، ويتخذه ممدوحاً له — ومن يدري ؟ فلعل ذلك كان من جملة الأسباب التي جعلت توغر صدر عياش عليه ، فهو في استعطافه يحاول أن ينتفي منه — ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، فلم يجد لديه شيئاً مما كان يطمح اليه ، وانما وجد هؤلاء الجلساء الذين وصفهم في البيت الأخير ، والذين شقي بهم أبو تمام شقاء غير قليل ، أو شقي بنفسه معهم ، في كل ناحية ينتحيها وكل مقام يقوم فيه .

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٥ .

لقد جعل أبو تمام يتخبط — فيما يبدو — فى التماس ممدوحين له ، يعيش فى ظلهم ، ويحتمى بكنفهم ، ويلتمس حياته عندهم ، ويحقق لديهم شاعريته ، ويستشرف فى مجالسهم المجد الأدبى الذى يتطلع اليه . ولكنه كان لا يلبث حتى تنقض سبيله تلك المثالية الغريرة أو ذلك الغرور الصبيانى ، فيفسد عليه أمره ، وإذا به يتجرع الفشل وخيبة الأمل .

ولعل هذه الحانة لم تظل بأبى تمام كثيراً — وان كنا نحسب انه عانى فيها جهداً مريراً — فانه ليصبح ذات يوم من أيام سنة ٢١٤ ، فاذا على مصر وال جديد قدم اليها من خراسان ، ليضع هذه الفتنة العارمة التى مازالت مضطرمة حداً تقف عنده وتنتهى به . وجعل الناس يتسامعون ببأسه وقوة شكيمته ، كما كانوا يتسامعون بنبله وجوده وأريحيته ، وعظم بقدر ذلك فيه رجاؤهم أن تزول به عنهم تلك الشدة ، وتنقطع الفتنة التى عبثت دهراً بحياتهم . وكذلك استشرفت آمال صاحبنا أبى تمام له ، وتطالت نحوه . وقد رجا أن يكون فى مقدم هذا الأمير ما يضع حداً لهذه المحنة التى اتيحت له ، والفتنة التى يضطرب بها صدره ، ويفسد عليها أمره . ثم لا يلبث حتى يتقدم اليه ويعقد به صلته ، ويجعل نفسه فى حاشيته .

ذلك الوالى هو عمير بن الوليد (١) ، والاتصال الى تمام به أمر ثابت تقرره هاتان القصيدتان اللتان نراهما فى ديوانه ، يرثيه بهما ، رثاءاً صادقاً نحس فيه شعور الحسرة والفجيعه وطغيان الأسى . ولكن اين مدائحه فيه ؟ أترى لم يتح لأبى تمام أن يتقدم اليه مادحاً ؟ أم كان ينتظر المناسبة تلوح له فيما قدم مصر من أجله ، يرفع إليه فيها مدحه ، وينوه بجميل أثره ، ولكن القدر انقض على هذه المناسبة ؟ أم أنه قد مدحه ، ولكن مدحه هذا قد ضاع فى الكثير الذى ضاع من شعر هذه الفترة ؟ كل هذه فروض محتملة ، وان يكن الأخير أقربها فيما نرى . أما مقطع الحق فى ذلك فلا سبيل اليه .

---

(١) يذكره القلقشندى باسم عمرو بن الوليد التميمى . ولعل فى الأمر تحريفاً . انظر : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٧ .

والواقع أن الأمر لم يطل بعمير بن الوليد فى مصر أكثر من ستين يوماً ذهب بعدها ضحية هذه الفتن العنيفة الجارفة التى جاء مصر لاخمادها والقضاء عليها ، فيما كان يرجو هو ويرجو الذين اختاروه وبعثوه لها . فأخمدته هى وقضت عليه . وفى صفة ذلك يقول الكندى: «... واستعد عمير لحرب أهل الحوف ، وبعث بعبد الله بن حليس الحلالى إلى الحوف ليصلح أمر قيس ، فعقدوا له عليهم ، وأقام بأمر اليمانية عبد السلام بن أبى الماضى الجذامى ، ثم الجروى ، فسار إليهم عمير فى جيوشه ، وتبعه الجلودى عيسى بن يزيد ، والتقى الفريقان بمنية مال الله ، فانهزم أهل الحوف ، فتبعهم عمير ، فعطف عليه كمين لأهل الحوف ، فقتلوه باليهودية...» (١) .

وهكذا انتهى وشيكاً ذلك الرجل ، وهكذا فجع القضاء أبا تمام فى آماله التى كانت قد بدأت تتنفس وتتفتح وتنتعش ، فلم تلبث حتى تقبضت وانضمت على نفسها ثانية ، حين عاجلها الموت فى ذلك الكمين الذى كان يتربص بعمير وكأنما كان يتربص بهذه الآمال أيضاً ، وأحس أبو تمام الفجيعة تواثب نفسه إلى أعماقها . وقد بقى لنا من آثار هذه الهزة النفسية التى عاناها بموت عمير هاتان القصيدتان اللتان اشرنا منذ قليل اليهما ، واحداهما هى التى يبدؤها بقوله :

أعيدى النوح — معولة — أعيدى ... وزيدى من بكائك ، ثم زيدى(٢)

وأما الأخرى فهى :

كف الندى أضحت بغير بنان ... وقناته أمست بغير سنان(٣)

ويشير فى رثائه هذا إلى تلك الموقعة التى امتحن بها عمير بن الوليد ، كما امتحنت بها آمال أبى تمام ، ويذكر انقلاب الأمر فيها على النحو الذى

---

(١) الولاة والقضاة ، ص ١٨٥ .

(٢) الديوان ، ص ٣١٢ .

(٣) الديوان ، ص ٣٢٦ .

يصوره الكندى فيما نقلنا عنه ، ولكنا نحس فى ذلك أنه انما يعبر عن انقلاب الأمر فى نفسه وشيكاً ، وذلك إذ يقول .

ياوقعة مفتوحة بكرامة	لو لم تكن مختومة بهوان
بدأت فعاد الكهل غراً ناشئاً	وثنت فشاب أصاغر الولدان

فانما هى نفس أبى تمام بين زهو الكرامة وضآلة الهوان ، وبين خفة الرجاء يفيض عليها صفات الصبا والغرارة ، وبين ثقل اليأس يبسط عليها سمات الشيوخ ، ويلزمها التوقر والتقبض ، ويشعرها بمشاعر الحياة الفانية المدبرة . ولسنا نريد أن نقف طويلا عند هذا الرثاء الذى جعل أبو تمام يتنفس به عن فجيعته ، ويعبر فيه عن آماله المكبوته المقموعة ، فكل بيت من قصيدتيه هاتين عبارة عن أنة أو زفرة أو حسرة ، ملونة بهذه الألوان القاتمة الغالبة على نفسه .

على أنا نستطيع أن نتبين بين هذه الألوان القاتمة التى تبعث الأسى لوناً آخر بعيداً عن هذا القتوم ، يلمع بينها لمعا خفيفاً ، ويومض من خلالها ومضاً خاطفاً ، ومضة البرق بدا ثم اضمحل . فقد كان هنالك إلى جانب شعور الفجيعة المطبق على نفس أبى تمام شعور آخر يحاول أن يقتحم عليه ويداخله ويهنه منه ، وهو شعور الرجاء . ولو انه كان خافتاً غامضاً مضطرباً يتسلل فى حذر ، إلا أنه جعل يمسح مسحاً رفيقاً بيده الرفيقة على تلك الأحزان يحاول تلطيفها ، وأخذ بصيصه الضئيل يشع من خلال تلك الظلمات المتدجية يريد أن يكشف منها . وكان مبعث ذلك الرجاء هو سليل الراحل الشهيد ، محمد بن عمير بن الوليد ، وقد كان فى ابان ولاية ابيه يتولى بعض المناصب فى مصر ، إذ كان على شرطتها إذ ذاك .

فلم تكد نفوس أصحاب عمير تفيق من أثر البغتة التى أصابتها بها تلك الفاجعة ، حتى أخذت تنظر إلى ابنه محمد هذا ، وجعل نزوعها الطبيعى إلى التعزى يلتمس أسبابه فى ذلك الرجل ، كما أخذت الآمال التى بددتها

تلك الفاجعة تتجمع شيئاً فشيئاً حوله ، وتعصب به ، وإذا بالقوم يتجهون إليه ليكون فى مكان أبيه والياً على مصر . ولعلنا نستطيع أن نتبين هذه الرغبة من وراء بعض أبيات الرثاء ، فأكبر الظن أن أبا تمام حين يوجه بعض القول إلى الخليفة فى خلال رثائه ، متحدثاً عن عمير ومكانه فى نفوس أهل مصر وبلائه فى قتال أصحاب الفتنة ، وقضائه بذلك حق الدولة ، انما كان يرمى من وراء هذا إلى أن يوجه نظر الخليفة إلى ابنه محمد ، ورعاية لحق ابيه ، ومكافأة له على ما أبلى من بلاء لم يمهله ، فلم يلبث أن عاجله الموت ، دون أن يستمتع بالولاية . أو لعله كان يردد ما كان أصحاب عمير يدبرونه بينهم ، ويودون لو يبلغ الخليفة ، وذلك إذ يقول :

ألا أبلغ خليفتنا مقالى ... وأبلغه الأمين بن الرشيد (١)
بأن أميرنا لم يأل عدلا ... ونصحا فى الرعايا والجنود
أفاض نوال راحته عليهم ... وسامح بالطريف وبالتليد
وأصحر دونهم للموت ، حتى ... سقاه الموت من مقر مبيد
وما ظفروا به حتى قراهم ... قشاعم أنسر وضباع بيد

فهذه الأبيات التى يتجه بها أبو تمام إلى الخليفة ، وإلى أمير مصر ، والتى يقصد فيها قصداً إلى التعبير عن مكانة عمير بين المصريين لكرمه واريحيته وشدة بأسه ، تكاد تكون تعبيراً صريحاً عن تلك الرغبة .

وقد تم لأبى تمام وأصحاب عمير بن الوليد ما أرادوا ، وتحققت رغبتهم لدى الدولة ، فولت محمد بن عمير على مصر ، وانتعشت آمال أبى تمام لهذه الولاية ، وهى الآمال التى تنطق بها وتعبر عنها هذه الأبيات التى جعلها ختاماً لاحدى قصيدتيه فى رثاء عمير ، وذلك إذ يقول :

---

(١) يقصد بالأمين بن الرشيد أبا أحمد محمد بن هارون (المعتصم) الذى كانت له إمارة مصر والشام فى ذلك الوقت ، وكان ابيه أمر ولاة هذا الإقليم فى توليته وعزله . وكما لقب المعتصم هنا بلقب الأمين كذلك اطلقه أبو تمام على المأمون فى قوله :
هذا أمين الله ، آخر مصدر ... شعبى انظماء بدو أول مورد (الديوان ص٨٦)

فمحمد كهف الكهوف وعمدة الـ ... ملهوف من عاف رجاه ودانى
حمال ما لسوحل أصغره على ... ثهلان لانهدت ذرى ثهلان
وإذا تدنست الرجال ، فانه ... عف السريرة طاهر الاعلان
يحكى فعال أب كريم فى ندى ... وشجاعة وبلاغة وبيان
فلأشغلن بمدح ذا وبندب ذا ... أبداً لسانى ، ماملكت لسانى

وهكذا استشرف أبو تمام لهذا الوالى الجديد ، يتخذه ممدوحاً له ، وموضوعاً لشاعريته ، وسبباً من أسباب المجد الأدبى الذى ينشده ، والحياة الرخية الراضية التى يرنو اليها . ولكن...

١٢

ولكن العهد لم يطل بمحمد بن عمير فى هذه الولاية ، فقد كانت أقصر من ولاية أمه التى اقتضبها القضاء ، بل هى نصفها ، إذ لم تعد الشهر الواحد . وأصيبت آمال ابى تمام مرة ثانية ، ولم تكد تحس الروح . ولعل محمد بن عمير لم يجد وجهاً للاقامة فى مصر بعد عزله عن ولايتها ، فعاد إلى موطنه فى خراسان ، ومن ذلك — فيما نقدر — أنا لا نجد فى ديوان أبى تمام مدحاً له غير هذه الأبيات التى جاءت فى سياق رثائه لابيه ، وان أقسم فيها ان لا يزال مشغولا بمدحه .

وهكذا انقضت هذه الأشهر الثلاثة التى كانت نفس أبى تمام فيها مسرحاً للمشاعر المختلفة ، تتقلب عليها وتعبث بها ، على النحو الذى رأينا ، فهى دائمة الاضطراب بين اليأس والرجاء ، والانقباض والانبساط ، والأسى والسرور ، لا تكاد تلم بها حالة حتى تغلبها عليها نقيضتها ، ولا تكاد تحس بأنها أخذت تقر على أمر أو تستشعر الروح فيه والسكينة ، حتى تزعج عنه . فكأنما كانت — فى حقيقة أمرها — صورة من هذه الحالة القلقة المضطربة التى كانت تسود مصر إذ ذاك .

ولاريب أن هذه الحالة التى نستطيع أن نتصورها تصوراً مقارباً فيما سرد الكندى من أحداثها وملابساتها ، لم يقف أثرها عند هذا الاضطراب الذى

يتخذ لوناً سياسياً وصورة من الخصومات والمنازعات بين الاحزاب المختلفة، ثم ما كان يترتب على ذلك من صعوبة الحياة واضطراب أسباب العيش، مما كان مثار شكوى عامة الناس ، كما لم يقف أثرها عند سوء الحالة المالية من حيث جمع الخراج وتأديته ، وهو ما كانت تشكوه الدولة؛ وانما كان لها أثرها فوق ذلك كله فى نفوس الناس واخلاقهم وأساليب معاملاتهم ، إذ أفسدتها أيما افساد ، فقد ضربت على كثير من خلال الخير و شمائل الرجولة وأسباب الثقة فأضعفت من شأنها ، كما أشاعت بين الناس روح الأثرة، تحكم تصرفاتهم وتوجه علاقاتهم . وإنه ليبدو لنا أن هذا الفساد الخلقى كان مسؤولا إلى حد بعيد عن تلك المحنة التى تعرض لها عمير بن الوليد وانتهت بموته ، وأصيب بها ابنه محمد من بعده؛ فانتهت بعزله ، وأصيب بها صاحبنا أبو تمام بطبيعة صلته بعمير وابنه ، وتعرضت بها نفسه وآماله لذلك المد والجزر يتعاقبان عليها تعاقباً لا أناة فيه ولا ترفق . وقد كان ذلك كله — فيما نرى — مظهراً من مظاهر ذلك الفساد الاجتماعى والخلقى الذى امتحنت مصر به فى تلك الفترة .

ولعلنا نستطيع أن نتبين هذا فى وضوح إذا نحن نظرنا فى ولاية عمير وابنه محمد نظرة شاملة قدر ما تتيح لنا المادة التاريخية التى بين أيدينا ، ثم لمحة النظر نتعرف ماوراء الأحداث من بواعث .

لقد كانت ولاية عمير بن الوليد على مصر عقب ولاية عيسى بن يزيد الجلودى الذى كان والياً عليها منذ سنة ٢١٣ ، ثم عزل عنها ، وجاء عمير خلفاً له ، لعله يحقق ما أخفق فيه سلفه من قمع الفتنة .

والجلودى هذا كان أحد قواد الدولة الذين تتردد أسماؤهم كثيراً فى أخبار تلك الفتن التى نشبت فى كثير من أرجاء البلاد الاسلامية ، فى أوائل القرن الثالث للهجرة . وقد كان أول أمره — فيما نعرف — رجلا من رجال الخليفة الأمين ، ولكنه كان إذ ذاك شخصاً ضئيل الخطر محمور القدر ،

لم يتح له بعد أن يظهر . حتى إذا انتهت فتنة الخلافة ، وانتصر جانب المأمون وأفضى الأمر اليه ، سارع بالانضمام اليه ، ثم لم يلبث أن أتيح له فى هذا الوضع الجديد الذى اتخذه فرصة المشاركة فى العمل لتوطيد دعائم هذه الدولة الجديدة ، بالمشاركة فى قمع فتنة من أخطر الفتن التى تعرضت لها الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وهى الثورة التى أوقدها الطالبيون ، وقادها أبو السرايا ابن منصور الشيبانى .

وقد ابلى الجلودى فى حرب ابى السرايا بلاءاً حسناً ، واستطاع أن يقضى على هذه الفتنة سنة ٢٠٠ (١) . واستطاع بذلك أن يظفر بتقدير الحسن بن سهل واعجابه بمواهبه الحربية . فما إن عاد المأمون من خراسان إلى العراق حتى كان الجلودى من الشخصيات التى نالت ثقته وظفرت بتقديره . وقد رأى — بالرغم من اتصاله بالأمين — انه يستطيع الاعتماد عليه فيما يضطرب به الجو حوله ، فكان يكل اليه قمع هذه الفتنة وتلك ، وكان مما أسنده اليه أمر محاربة الزط سنة ٢٠٥ (٢) ، وكان أمرهم مبعث قلق للدولة . كما جعله والياً على مصر ، سنة ٢١٣ ، رجاء أن يوفق فى القضاء على تلك الفتن الناشبة بها ، كما أشرنا إلى ذلك قبل .

ذلك هو عيسى بن يزيد الجلودى ، سلف عمير بن الوليد فى ولاية مصر : قائد عسكرى شديد البأس ارتفعت به مواهبه العسكرية فى هذه الفترة المضطربة بالفتن . وقد بزغ نجمه بعد أن تحول إلى معسكر المأمون ، وعرف بقدرته على اخماد الثورات وحسن تدبيره فى القضاء على الفتن ، ومن أجل ذلك اختير لولاية مصر . ولكن مصر كانت ميداناً جديداً بالقياس إليه ، وكانت عناصر الفتنة فيها مختلفة عما كان يعهده فى الشرق ، فلم يتح له فيها من النجاح ما كان مقدراً عند توليته . وقد عرفت الدولة ذلك فعزلته ، وولت عمير بن الوليد مكانه فاعتزل كارهاً بطبيعة الحال .

(١) انظر — مثلا — تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، ١٠ : ٢٣١ — ٢٣٥

(٢) انظر — مثلا — تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٢٥٧ .

وكان من الطبيعي أن يترك ذلك العزل في نفس الجاودي قدراً من المرارة ، ثم لم تلبث هذه المرارة أن تحولت إلى نوع من الضغينة يضطغنها على خلفه عمير بن الوليد ، ثم لم تلبث هذه الضغينة أن اتخذت سبيلها إلى الخوارج . لقد كان الجاودي — كما رأينا في تاريخه — رجلا عملياً ، لا يقف شيء دون غايته ، والغاية عنده تبرر الواسطة ، وغايته هي غاية أمثاله في ذلك الوقت : الامارة أو الولاية . فلاجرم أخذت هذه الضغينة سبيلها إلى الكيد له ومحاولة الايقاع به ، واسترداد الولاية التي سلبه اياها . ومن أجل هذه الغاية كان — فيما نقدر — بقاؤه في مصر بعد عزله ، لم يغادرها إلى العراق كما هو المتوقع أن يكون ، كأنما كان يتوقع أن يعود والياً عليها بعد قليل. وكذلك ظل في مكانه يتربص بخلفه الدوائر ، ويمهد لنفسه السبيل إلى الولاية . وانه لجدير أن يجد في اضطراب الأمور في مصر ما يمكن له في يسر من أن يدبر مكيدته ، وينصب حبالته ، ليدرك من وراء ذلك غايته . وها هو ذا عمير بن الوليد ما يكاد يستقر في مصر ، ويتبين موضعه حتى يأخذ في الإعداد لما جاء له ، وفي مواجهة الفتنة ، ثم لا يألو أن يمضي في جيوشه إلى أهل الخوف لمحاربتهم وكسر شوكتهم . وهنا نرى الجاودي يخرج وراءه ، ليكون في ظاهر الأمر مدداً له . وإذا كان المؤرخون لم يذكروا فيم كان خروج الجاودي على هذه الصورة ، فانه على كل حال يثير ريبة الباحث المتتبع للأحداث المتطلع إلى ماوراءها . وان منطق هذه الأحداث ليكاد ينتهي إلى اتهام الجاودي بأن خروجه هذا كان — على الأقل — جزءاً من خطة مدبرة

ولعل أبا تمام كان يحس هذه الريبة ، وكان يعنيها حين يوجه القول في احدى قصيدتيه إلى بعض أصحاب عمير ، يرميهم بأنهم خذلوه وتخلوا عنه حين وقع في ذلك الكمين الذي دبر له ، بعد أن تم له النصر . وذلك إذ يقول :

أتركتموه للسيوف وللقنا ... بالقاع والصمان يعتلجان
أن تخذلوه فقد حماه مثقف ... للدن ومصقول الغرار يماني

تلك — فيما نحسب — حقيقة الأمر في مقتل عمير بن الوليد ، وذلك عندنا مظهر من مظاهر ذلك الفساد الخلقي الذي اشرنا إليه .

ولما قضى الأمر وقتل عمير بن الوليد على تلك الصورة ، انتعش أمل الجلودى فى استعادة ولاية مصر ، ورآها على مد يده ، فقد مهد له الموت سبيله اليها ، لولا أن هنالك شيئاً يعترض بينه وبينها ، ولكنه شىء هين ليس له كبير خطر على كل حال . فما عسى أن يبلغ فى ذلك شيعة عمير ؟

وقد رأينا من قبل كيف كان أصحاب عمير وشيعته بودون لو أسندت الولاية بعده إلى ابنه ، محمد بن عمير . وكأنما كانوا يحسون ما يضطرب فى الجو فى هذه المسألة ، فجهدوا — فيما يظهر — الا تتم للجلودى هذه الولاية التى كان يسعى اليها ويدبر لها ، فانها حقيقة إن تمت له أن تزرأهم . وربما كان أبو تمام يعنى شيئاً من ذلك ، أو يعبر عما يتردد من هذا القبيل فى خاطره إذ يقول فى رثاء عمير :

رأيت مؤملیك عدت عليهم ... عواد أصعدتهم فى كؤود
وأضحت عند غيرك فى هبوط ... حظوظ كن عندك فى صعود

وكذلك سعى أصحاب عمير سعيهم — فيما نفترض — إلى أن تكون ولاية مصر لمحمد بن عمير ، حتى تمت له كما قلنا . وجدير بذلك أن يكون عاملا جديداً فى حنق الجلودى عليهم . ولكن هذه الولاية التى كدرت — بعض الشىء — صفوه ، لم تظل كما قدمنا أكثر من شهر ، كان الجلودى — فيما نحسب — يكد فى أثنائها ويكيد ويجمع اليه أمره ، ويصطنع ما يعرف من الوسائل ، ليحسر هذه الولاية عن غريمه ويظفر بها لنفسه ، حتى تم له الأمر وانتهى التدبير إلى غايته المرجوة لديه ، فاذا بالبريد يحمل اليه كتاب توليته موجهاً اليه من دار الخلافة ، فيتلقاه ثم لا يلبث أن يظهره . وكان ذلك أسلوباً فى العزل متبعاً فى بعض الظروف الخاصة ، فلا يرى محمد الا أن يخلى مكانه ، ليقوم فيه الجلودى . وقد تم له الأمر على الوجه الذى كان يرجوه ويدبر له ، وانطوى أصحاب عمير على أنفسهم يكاتمون الحسرة والوجيعة

هذه هي صورة الأمر في هذه الفترة : معاندة ومكايدة بين الجلودي وشيعة عمر وابنه محمد ، فاذا ظفر الجلودي وأصبح له أمر مصر ، فقد انطوت نفوسهم على الغيظ والرغبة في التشفي ، فوق ما يضمرونه من بغض وحنق . ولا جرم كان أبو تمام من أشدهم حقداً عليه ، واضطغاناً له ، وحرصاً على شفاء صدره منه حين تتاح له الفرصة ، فيسلط عليه شعره .

ولم تلبث الأيام أن أتاحت لأبي تمام هذه الفرصة ، وعرضت له عرض الجلودي ، يتناوله كما شاء ، ذلك انه لم تمض على ولاية الجلودي هذه الثانية أيام حتى واجهته هذه الفتن التي كانت ما تزال سائدة في مصر ، وثار أهل الخوف . فتجهز لهم وسار اليهم ، فالتقيهم بمنية مطر ، فكانت بينهم وقعة ، ثم انصرف أهل الخرف على حامية ، ومضى الجلودي حتى نزل النويرة ، فخندق على نفسه وجيشه خندقاً ، وأقام أياماً ، فأتاه أهل الخوف فصيحوه فهاله أمرهم ، فلما أمسى تحمل منهزماً إلى الفسطاط ، وأحرق ما ثقل عليه من رحله ، وخندق على الفسطاط ، وذلك يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب » (١) ، كما يقول الكندي في وصف هذه الموقعة .

رجع الجلودي إذن من حملته التي شنها على أهل الخوف مهزوماً فزعاً مفرق النفس ، وقد جعل الفزع يستاقه سوقاً عنيفاً . فهو مسرع إلى الفسطاط متخففاً من أثقاله ، متخلياً عن أصحابه ، يريد أن يعتصم به ويمتنع فيه من هؤلاء الذين اذاقوه الهزيمة ، وهو أشد اعتداداً بالنفس وثقة بالنصر ، وملأوا قلبه رعباً وفرقاً ، فهو يخشى أن يتعقبوه حتى داره ، ويوقعوا به .

ولاريب أن هذه العودة في هذه الصورة التي تحمل مظاهر الانكسار الذريع ، وتحيط بها معاني الخيبة المنكرة ، قد أثارت عليه في الفسطاط السخرية تنتاشه من كل جانب ، وجعلته هدفاً للعبث في ألوانه المختلفة ، ومكنت لأبي تمام وأصحابه من خصومهم الجلودي — وقد كانوا يتربصون به أن يحيق به مكره

---

(١) الولاة والقضاة ، ص ١٨٧ .

ـ ان يظهروا الشماتة به ، ويفتنوا فى التشهير بأمره. وكذلك جاءت هذه القصيدة التى احتفظ بها ديوان ابى تمام فى هجاء الجاودى ، وهى قوله :

صحبى قفوا ! عليكم صحباً فاقضوا بنا من ربعها نحباً

وتلك هى ملابسات هذه القصيدة التى تبدو معلقة فى الديوان ، يحيط بها الخلاء من كل جانب . وانما هذه ـ فيما نرى ـ قصة ابى تمام فيها . وكان لابد لنا من تلمس هذه القصة وتبين اجزائها وحقائها ، وتفهم ما يمكن وراءها للمستطيع أن نعرف الحقيقة فى هجاء ابى تمام ليحيى بن يزيد الجاودى ونضع بذلك هذه القصيدة فى موضعها ، ونصلها بملابساتها . ونتمثل الجو الذى أوحى لأبى تمام بموضوعها وصورها ومعانيها . وأبو تمام ليس من شعراء أهل الحرف فيكون هجاؤه للجاودى عصبية لهم ، وتعبيراً عنهم ، وانما هو شاعر طارىء على مصر ، ليس له كبير شأن بمثل هذه الخصومة . فلابد إذن من أن نتمثل هذه الملابسات على وجهها لنقدر هذه القصيدة ، ونتفهم المشاعر التى ساقتها وتترقرق فى ثناياها .

والقصيدة فى جملتها تصوير لهذه الموقعة ، ولكنه تصوير مشبع بروح الشماتة ، متجه ـ بطبيعة الحال ـ إلى السخرية بالجاودى والتشهير به ، إلى جانب الاشادة بالثائرين من أهل الحرف ، وتسفيه قضيتهم عنده لا تعدو أنهم هزموا الجاودى ، فأتاحوا له بذلك أن يجد فى نفسه روح الشماتة ، ومكنوا له من أن يثأر لنفسه بهجائه . فكان ذلك كافياً عنده ليثير اعجابه بهم ، فهو يقضى حق ذلك الاعجاب بان يشيد بهم ، وينوه بمشاهد بطولتهم فى تلك المعركة ، ثم يمضى إلى تصوير الجاودى وتمثيل ما أصابه ، حين هاله ما رأى من خيل هؤلاء الأبطال ، تملأ الجو عليه ، فملأ الرعب أحشاءه ، ثم لم يعصمه منهم الا الليل ، وقد لفه بظلامه ، فسرى يلف البيد لفاً ، وترك وراءه جنده جزرا للفناء .

قتل ، وأسرى فى الحديد معاً يتوقعون القتل والصلبا

وهكذا استطاع أبو تمام بهذه القصيدة أن يثأر لنفسه ولجماعة عمير بن الوليد من هذا الوالي الذي كان يحمل عندهم شيئاً غير قليل من تبعة ما انتهى اليه صاحبهم ، وما انتهت اليه آمالهم فيه ، والذي كان يثير في نفوسهم مشاعر السخط والحقد والضغينة .

١٣

هكذا كانت حياة أبي تمام في مصر ، قدر ما يمكن أن تؤدي الينا هذه البقية الباقية من شعره فيها. ومن هذه الصورة التي اتيح لنا أن نرسم على ذلك النحو خطوطها ، ونتمثل فيها طائفة من ملامح حياته ونواحي نشاطه ، عن تلك البقايا القليلة من شعره ، يتبين لنا أنه شقي حقاً بمقامه في مصر ، قدر ما كان مقدمه اليها مقروناً بالأمل المبسوط والرجاء الناضر المتفتح . فلم تكن حياته فيها — كما رأينا — إلا سلسلة متصلة الحلقات من الطلب والمبالغة فيه والالحاح عليه ، ثم الخيبة المريرة والفشل المؤلم . فقد انتهت صلته بعياش ابن لهيعة — وهو أول من تفتحت عليه آماله وتمرجت به احلامه — تلك النهاية التي رأيناها ، فاذا ما اتيح له رجل كعمير بن الوليد أو ابنه محمد ، ممن كان يتوسم فيهم تحقيق شيء من مطامحه الأدبية ، وحاجاته المادية والفنية لم تمهله الأقدار ، فاذا بها تتصدى له ، وتسلبه هذه النعمة ، وتتركه محزوناً يملأ قلبه الشعور بالشقاء والتعاسة .

وهذا الشقاء الذي ألح عليه في مصر ذلك الالحاح ، وأرهق مشاعره أشد الارهاق ، يفسر لنا تلك الطائفة الشاكية المتبرمة من القصائد التي يصف بها حياته في مصر ، ويصدر فيها عن نفس محزونة ضائقة . وقد بقي لنا من هذه القصائد — قدر ما أتيح لنا أن نتتبعه في شعره الذي بين أيدينا خمس ، أربع منها في النسخة المعهودة التي بين أيدينا ، والخامسة انفردت بها النسخة التي نشر الجزء الأول منها ، وشرحه ، الدكتور ملحم ابراهيم الأسود ، ومطلعها :

أطلال بنت العامرى بمنيح غناؤك محظور على الدنف الشجى(١)

وقد ذكر فيها مصر مما يدل على أنها من قصائده المصريات ، وذلك إذ يقول :

وطال قطوني أرض مصر لحاجة يقال لها : اقبح بهاتى واسمج

وأما الأربع الأخرى فيها ثلاث تحمل بين أبياتها — مثل هذه القصيدة — ما يدل على أنها مما قاله فى مصر ، وهى قوله :

أصب بحميا كأسها مقتل العذل تكن عوضاً ان عضوك من النبل(٢)

كما سنرى ذلك فيما نعرض بعد من ألوان مشاعره التى تعبر عنها هذه القصيدة .

والثانية هى قوله ، وقد جاءت فى الديوان فى باب الفخر :

متى ترعى لقلبك أو تنيب وخدناه الكآبة والنحيب(٣)

وقد قال فيها ، مما يحمل تلك الدلالة :

فأصبح حيث لا نقع الصاد ولا نشب يلوذ به حريب
بمصر ، وأى مأربة بمصر وقد شعبت أكابرها شعوب

وأما الثالثة فهى قوله ، وقد جاءت فى ذلك الباب أيضاً :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر وقد سهل التوديع ما أوعر الهجر(٤)

وقال فيها ، يذكر مصر وخطوب حياته فيها :

وصارعت عن مصر رجائى ، ولم يكن ليصرع عزمى غير ما صرعت مصر

---

(١) بدر التمام فى شرح ديوان أبى تمام ، ١ : ١٧٢ ، ط بيروت ١٩٢٨ م
(٢) ديوان أبى تمام ، ص ٣٤٨ .
(٣) ديوان أبى تمام ، ص ٣٩٨ .
(٤) ديوان أبى تمام ، ص ٤٠٠ .

فأما القصيدة الرابعة منها ، فانما نعتبرها بهذا الاعتبار ، اعتماداً على قول البديعي في تقديمه لها : «وقال أبو تمام ، وهو بمصر ، يصف قومه ويفتخر بهم ، ويذم الدهر ويرثي الشعر»(١)، وإذ لم يكن لدينا ما يعترض هذه الدعوى في شأن هذه القصيدة ، وهي :

الا صنع البين الذي هو صانع ... فان تلك مجزاعاً فما البين جازع

على أنه يحسن بنا ألا نغفل القول هنا اننا في النص على هذه القصائد الخمس في هذا الصدد ، انما نقف عند حدود ما يدل عليه دليل صريح انه قاله في مصر . ولعل في الديوان غير هذه القصائد مما يجري مجراها غير أنا لم نجد هذا الدليل . وهي على كل حال كافية في تصوير هذه الناحية من مشاعر أبي تمام في هذه الفترة .

وهذه المجموعة من القصائد تعتبر طائفة من الشعر الصادق الذي تظهر فيه عواطف أبي تمام ظهوراً قوياً ، والذي يعجب قارئه اعجاباً غير قليل بصدقه ، وبتساوق الألفاظ والمعاني والصور فيه تساوقاً محكماً . ونستطيع أن نتبين في هذا الشعر ثلاثة ألوان من المعاني ، وهي : الذكرى والشكوى والفخر. وهي ألوان — على اختلاف ما بينها — منسجم بعضها مع بعض في التعبير عن نوازعه في مثل هذه الحالة التي كان يعانيها ، وأبواب من القول يفضي بعضها إلى بعض في التفريج عن تلك الأزمات النفسية التي كان يكابدها

لقد جاء أبو تمام إلى مصر والأمل يملأ قلبه أن يجد في اكنافها رغد الحياة ورفاهية العيش والمجد الأدبي ، ولكن هذه الآمال لم تكد تتفتح وتستقبل شيئاً من النسمات الحلوة ، حتى جعلت تتقاص وتتقبض وينطوي بعضها على بعض ، وهاهو ذا ينهي به المطاف إلى ذلك الشقاء يتجرعه تجرعاً ، وقد جعل احساسه به يرهف ويتضاعف كلما تقدمت به الأيام ، كما أخذت

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، ص ١٩٢ ، وانظر الديوان ، ص ٤٠٢ .

تختلط فى نفسه مشاعر الخيبة والضيم والقهر بشعور الشقاء المادى الذى أطبق عليه ضيقاً وشظفاً وسوء حال .

وكلما أعجزت الحيلة أبا تمام لقاء ذلك الشقاء الذى يبدو أنه سد عليه كل مسلك ، أخذت مشاعره تتخذ لها مسارب تخلص فيها من مواجهة هذا الواقع البغيض المؤلم ، فهى تعود به مرة إلى موطنه الأول ، تطوف به على معاهد حياته ومسارح صباه فيه ، وتعرض عليه من ذلك صوراً تشعره ببرد الطمأنينه ، وتبعث فى نفسه شيئاً من المتعة ، ثم تزيره أهله الذين فارقهم وكاد النسيان يضرب بينه وبينهم ،حتى رده إليهم شقاؤه ، يبكى بين أيديهم ، ويعاتبهم حيناً ويرجع باللائمة على نفسه حيناً آخر ، وكأنما هو يستشعر بذلك نوعاً من الهدوء والسلوى ؛ ثم تمضى به مرة أخرى إلى تلك العوالم التاريخية التى كونها لنفسه عن قومه واجداده من العافية ، فهو يديرها فى خياله ، ويمرها أمام نفسه ، ويخلطها بمشاعره ، حتى كأنما هو يعيش فيها . وقد ترك حاضره هذا الذى ضرب عليه الهوان أو كاد ، وفرض عليه صنوفاً من الضعة ، إلى تلك العوالم التاريخية التى تفيض بالمآثر والمفاخر ، وتزخر بآيات العزة والمجد والكرامة ، تبعث فى نفسه النشوة ، وتطرد عنه ما جعل يتدسس فى نفسه من أحاسيس الضعة والهوان .

وهكذا نرى أن الذكرى والفخر بابان من الأبواب التى تلجأ اليها النفس الانسانية للتعزى وتجنب الأمر الواقع . وكذلك الأمر فى الشكوى ، إذ ليست فى حقيقتها الا لوناً من ألوان التنفيس عن النفس ، ووسيلة من وسائل تفريج همها ، إذ تأخذ الآلام صورة كلامية ، فيخف عن النفس عبؤها . وبذلك نرى أن الأمر فى هذه الألوان الثلاثة قريب بعضه من بعض ، كما قررنا ، متصل أوثق الصلة بهذه الحالة التى كان أبو تمام يعانيها فى مصر .

وإذا كانت طبيعة أبى تمام الشاعرية من الأعوان عليه فى هذه المحنة ، بما شحذت من حسه وأرهفت من مشاعره ، مما جعل يضاعف — بطبيعة الحال — من آلامه ويبالغ فى التهويل عليه ، فان شاعريته أخذت تفتن

فى هذه المشارب التى ذكرناها ، وتذهب فيها المذاهب المختلفة ، مما بالغ ولاريب من أثرها فى الترويح عنه .

لم تعد ذكرياته عن موطنه الأول ومسارح صباه مجرد ذكريات ، وانما هى قطع من الفن يتغنى بها ، ويشعر من خلالها بالرضا والروح ، إلى جانب ما فى هذه الذكرى نفسها من متعة نفسية ، وتخلص من المحنة التى يضطرب فى عقابيلها .

ها هو ذا يذكر دمشق والبقاعين والجولان ، هذه الاسماء التى تثير فيه بنفسها أشد الحب وأقوى الحنين ، فى مثل هذه الأبيات :

سقى الرائح الغادى المهجر بلدة ... سقتنى انفاس الصبابة والخبل

فجاد دمشقاً كلها ، جود أهله ... بأنفسهم عند الكريهة والبذل
فلم يبق فى أرض البقاعين بقعة ... وجاد قرى الجولان بالمسبل الهطل
بنفسى أرض الشام ، لا أيمن الحمى ، ... ولا أيسر الدهنا ، ولا أوسط الرمل
ولم أر مثلى مستهاماً بمثلكم ... ولا مثل قلبى فيه ما فيه لا يغلى
عدتنى عنكم مكرهات الغربة النوى ... لها وطر فى أن تمر ولا تحلى

وها هو ذا يذكر ، مرة أخرى ، بعض أهله الأقربين ، ولعله يعنى هنا أمه ، فيلذ له أن يراها تحن اليه ، وتتمنى عودته ، وأن يرى نفسه أمامها ضعيفاً ستيما مهموماً مكروباً ، ليجلب إلى خياله مشهد العطف ، وليحضر فى نفسه صورة من صور الحب والحنان ، يتسلى بها ، ويلهو بمرآها ، ويقضى بها حاجة قلبه وقد جف كل شىء حوله ، فيقول فى نغمة حزينة أسيفة ملؤها اللوعة والحسرة :

وكم عدوية من سبى عمرو ... لها حسب إذا انتسبت حسيب
لها من طيء أم حصان ... نجيبة معشر وأب نجيب
تمنى أن يعود لها حبيب ... منى شطاً ، وأين لها حبيب ؟

ولو بصرت به لرأت جريضاً ... بماء الدهر ، حلته الشحوب
كنصل السيف عرى من كساه ... وفلت من مضاربه الخطوب

وبالله ، أى التياع تفيض به هذه الأبيات ، وأى صورة من صور النفس المجزونة قد غلبتها اللوعة واستخفتها الحسرة !

ثم ها هو ذا يذكر أيامه الأخيرة فى الشام ، حين كانت مصر تراوده وتتخايل له ، فجعل هو يراود نفسه فيها ، ويشاور أهله فى امضاء هذا السفر اليها ، ثم يذكر طريقه نحوها ، ثم ينثنى على نفسه وينظر فى عواقب أمره ، آسياً متوجعاً متحسراً ، فيقول مثلا :

عصيت شبا حزمى لطاعة جيرة ... دعتنى إلى أن أفتح القفل بالقفل
وأبسط من وجهى الذى لو بذلته ... إلى الأرض من نعلى لما نقبت نعلى

. . . . . .

ولو أننى أعطيت بالسى نصيبه ... اذن لأخذت الحزم من مأخذ سهل
وكان ورائى من صريمة طيبة ... ومعن ووهب عن أمامى مايسلى
فلم يك ماجرعت نفسى من الأسى ... ولم يك ما جرعت أهلى من الثكل

ويقول مثلا فى موضع آخر :

جمعت شعاع الرأى ثم وسمته ... بحزم له فى كل مظلمة فجر
وصارعت عن مصر رجائى ولم يكن ... ليصرع عزمى غير ماصرعت مصر
وطحطحت سداً سد يأجوج دونه ... من الهم لم يفرغ على زبره قطر
بذعلبة أوفى بوافر نحضها ... فتى وافر الاخلاق ليس له وفر
فكم مهمه قفر تعسفت متنه ... على متنها والبر من آلها بحر

هذه أبيات لا نكاد نجد القدرة على التعليق عليها بكلمة ، حتى لا نفسد الجو الذى خلقته فى أنفسنا بصورة طبيعية لا تكلف فيها . وهذا شعر ممتلىء حيوية ، صادر من أعماق الشاعر . وهو يصور لنا مبلغ ما كان يخالج نفسه فى هذه الفترة من حنين وتحسر : حنين إلى موطنه وتحسر على مفارقته .

وقد أثارتهما فيه هذه الحياة البائسة التعسة التي مني بها ، والتي استطاع أن يصورها - كما هي في نفسه - تصويراً رائعاً في هذه القصائد . ولا غناك هنا إلا أن نقدم في بيان ذلك أمثلة فحسب ، نستطيع أن ننظر من خلالها إلى هذه النفس الموجعة التي قست عليها الحياة ، وأرهقها شعور الخيبة ، فهي ساخطة صارخة حيناً ، وهي متصبرة رابطة ، مستسلمة للقضاء ، مؤمنة بتصاريف القدر ، حيناً ثانياً ، وهي ناظرة في نواميس الحياة مستخلصة منها الحكمة مصطنعة الهدوء والروية ، تحاول أن تجد في ذلك معتصماً يعصمها من شعور التعاسة والشقاء الذي يرهقها ، حيناً ثالثاً .

فها هو ذا يقول ، في القصيدة اللامية ، مصوراً أمره تصويراً شاكياً :

توانى وشيك النجح عنه ،ووكلت ... به عزمات أوقفته على رجل
ويمنعه من أن يبت زمامه ... على عجل أن القضاء على رسل
قضى الدهر مني نحبه يوم قتله ... هواى بارقمال الغريرية الفتل
لقد طلعت في وجه مصر بوجهه ... بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همه ... مخيمة بين المطية والرحل
وسورة علم لم تسد فأصبحت ... وما يتوارى أنها سورة الجهل
نأيت ، فلا مالاحويت ،ولم أقم ... فأمتع اذ فجعت بالمال والأهل
بخلت على عرضي بما فيه صونه ... رجاء اجتناء الجود من شجر البخل

وكذلك نقف الآن عند هذه الأبيات ، لا لنقول كلمة تعليق ، فقد يبدو أن ذلك لا يعدو أن يكون تفاهة لا قيمة لها ازاء هذه الروعة . ولكنا نقف لنتملى ذلك الجو الشعري ، وتلك المشاعر التي استطاع أبو تمام أن يغمر بها قلوبنا ونحواسنا ، ويفيضها علينا افاضة يشركنا بها معه ، بل يمزج بها بين مشاعرنا ومشاعره ، وبين اشخاصنا وشخصه .

ثم ها هو ذا يقول مرة أخرى ، متصبراً متجلداً ، يحاول أن يربط على قلبه ويمسك نفسه المتفزعة ، إذ يذكر القضاء ويصطنع الحكمة :

ومن قامر الأيام عن ثمراتها فأحج به أن تنجلي ولهما القمر
فان كان ذنبي أن أحسن مطلبي أساء فقى سوء القضاء لى العذر
قضاء الذى مازال فى يده الغنى ثنى غرب آمالى وفى يده الفقر
رضيت، وهل أرضى إذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضا من له الأمر
فأشجيت أيامى بصبر حلون لى عواقبه ، والصبر مثل اسمه صبر

كما يقول مثل ذلك أيضاً ، فى نغمة تغلب عليها الأناة ومراجعة النفس عن جزعها وسوء احتمالها :

وطال قطوفى أرض مصر لحاجة يقال لها : أقبح بهاتى وأسمج
أقلب فى أقطارها الطرف كى أرى — ولست براء ذاك — عصمة ملتجى
فقنعنى يأسى . وأعلم أننى مقود بحبل للمقادير مدمج
ونحن أناس نذخر الصبر للأسى ونهتاج اليوم العبوس المهيج

وبعد ، فها هو ذا أبو تمام فى تلك الأزمات النفسية التى أطبقت عليه وأرهقته فى مصر . وقد عرفنا مأتاها والظروف التى مكنت لها . كما رأينا طائفة من المسالك الفنية التى سلكها فى التعبير عنها . ومحاولة التنفيس عن نفسه فيها .

على أن أكثر ذلك نجده ملتبساً بالفخر متصلا به . وذلك — كما قلنا — نوع من المهرب تلجأ اليه النفس حين تكدى ويغلبها على أمرها الفشل والخيبة ولا نكاد نجد قصيدة من هذه القصائد التى أشرنا إليها إلا وقد لجأ فيها إلى ذلك الأسلوب ، فأخذ يتعزى عن حظه التعيس وبأساء الحياة المحيطة به بذكر مفاخر قومه والاشادة بهم . وإذا كان هذا الأسلوب واكثار ابى تمام من اصطناعه فى ذلك الصدد يرجع إلى ماذكرنا ، فانه يرجع من ناحية أخرى إلى ما تعرفنا اليه فى شخصية أبى تمام من اعتداد بنفسه وامتلاء بذاته . فلا جرم أكثر من اصطناع الفخر ، إذ كان يستجيب إلى غروره من ناحية ، ويجد فيه من ناحية أخرى حاجته إلى التعزى ومجانبة الواقع المؤلم الذى يحيط به .

وهكذا كان أبو تمام يتلقى أيامه فى مصر ويتحداها ، إلى أن أتيح له أن يغادرها . ولكنه لم يغادرها حتى كانت هذه الآلام قد انضجت شاعريته ، مما كان من العوامل التى أتاحت له أن يتبوأ ذلك المكان الرفيع فى تاريخ الشعر العربى .

١٤

لاريب أن أبا تمام جعل يفكر فى الرحلة عن مصر والعودة إلى الشام ، منذ أخذت الأمور تتأزم فى نفسه على النحو الذى رأينا . وانما كان — فيما نقدر — يتخين الفرصة المناسبة والظروف المعينة . ولعله كان يعنى ذلك المعنى ، وهو يقول هذا البيت :

وعنعه من أن يبت زماعه على عجل أن القضاء على رسل

فقد كان عنده أن الاقدار هى التى تمسكه فى مصر ، وتمنعه من أن ينطلق إلى وطنه الذى كان دائم التخايل له . ولعله كان يعلل نفسه فى خلال ذلك بصلاح الحال وانفراج الأمور . ولا نكاد نشك فى أن أبا تمام كان يحمل فى نفسه لمصر طائفة من الذكريات الجميلة المحببة ، وأنها كانت تومض أحياناً فى خلال تلك الأزمات ، وحين كان يرى السفر عن مصر ضرورة لازمة .

على أنه قبل أن يغادر أبو تمام مصر تهيأ لها حدث من الأحداث النادرة جعل نفسه تشرئب اليه وتتطلع نحوه . فقد جعل الناس فى مصر يتسامعون بأن الخليفة المأمون مقبل عليها ، وأنه قد أخذ سبيله اليها عقب أيام عيدالأضحى (سنة ٢١٦) ، ليتظر بنفسه فى أمر تلك الفتن المتصلة المتدجية التى تمزقها وتفسد أمرها .

وقد أحدث ذلك النبأ آثاره المختلفة فى نفوس الناس . ولم يمض غير قليل حتى وصل الخليفة إلى مصر ، ودخلها فى شهر المحرم (سنة ٢١٧) . ولاريب ان هذا الحدث الخطير كان له أثره البالغ فى نفس أبى تمام ، وأنه

أجس فى مقدم الخليفة فرصة لآماله المنقبضة تتفتح عليها وتتجدد بها — بل لعله رأى فى ذلك نوعاً من مجاملة الأقدار له. فجعلت شاعريته تتشوف لذلك اما تشوف . ثم لم يلبث أن نظم قصيدة رجا أن يتقدم بها إلى الخليفة ، وإن نفسه لتتطلع إلى الغد المرجو ، وإلى المجد الأدبى المحقق الذى تتيحه له هذه الفرصة السانحة .

ومؤرخو أبى تمام يقولون إنه حاول قبل اتصاله بالمعتصم أن يتصل بالمأمون ، ولكن محاولته لم تنته إلى غايتها ، إذ لم يفلح فيها . ومعنى هذا أنه لم يتح له أن يجلس إليه أو يقوم بين يديه ، شأن الشعراء فى اتصالهم بممدوحيهم . ولم يذكر هؤلاء المؤرخون أين كانت هذه المحاولة التى يعنونها فى هذا الخبر ، أفى مصر كانت أم فى العراق . وإذ كنا نعلم مبلغ عنايتهم بالفترة المصرية فى حياة أبى تمام ، فأكبر الظن أن مصر لم تخطر لهم وهم يوردون هذا الخبر . على أنه لا يبعد عندنا أن أبا تمام ، وان مدح المأمون فى مصر ، لم يتح له هذا المدح أن يبلغ به ما كان يرجوه ، وأنه كان لظروف هذه الفترة اثرها فى الحيلولة بينه وبين مجلسه .

وديوان أبى تمام يحتفظ لنا بقصيدتين نص فى التقديم لهما على أنه قالهما فى مدح المأمون (١) أما أولاهما فهى التى مطلعها :

كشف الخطاب فأوقدى أو أخمدى لم تكمدى فظننت أن لم تكمدى (٢)

وأما الأخرى فهى قوله :

---

(١) وهناك قصيدة أخرى يرى بعض شراح أبى تمام أنها فى المأمون ، بالرغم من أنها مقدمة فى الديوان على أنها فى المعتصم ، وأن الخليفة الممدوح بها قد وصف بانه ثامن الخلفاء لاسابهم وهى :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حلية يتكسر

(الديوان ص ١١٧)

وليس هناك أى دليل يستند اليه ذلك الزعم أنها فى المأمون إلا ماجاء فى ذلك أنتقل مستداً إلى غير معروف

(٢) الديوان ص ٨٤ .

دمـن ألم بهـا فقـال سلام كم حل عقدة صبره الإلمام (١)

وقد أشرنا من قبل إلى ما يغلب على ظننا من أن القصيدة الأولى هى من حملة آثاره التى انتجها فى مصر ، لهذه المناسبة . وأما القصيدة الأخرى فليست مصرية قطعاً . فقد قالها بعد مغادرته مصر . وعندنا أنه قالها وأراد أن يتقدم بها للمأمون ، عند عودته من بلاد الروم . ونحن نعلم أن المأمون غزا بلاد الروم قبل أن يجىء إلى مصر ، ثم غزاها مرة أخرى بعد مغادرته إياها . فقد قالها عند هذه العودة الثانية من غزوه ، وملأها بالوصف له والحديث عنه والاشادة به .

والذى يحملنا على الذهاب إلى أن القصيدتين قيلتا فى وقتين متباعدين نسبياً ، أو مختلفين على الأقل ، هو الأسلوب العام أولا . فهناك تفاوت ظاهر بعيد بينهما من حيث الروح الفنية والصياغة الشعرية يجعلنا أكثر ميلا إلى وضعهما فى وقتين متباعدين . ولكنا لن نقف عند هذه الظاهرة طويلا ، فمرجع الأمر فيها إلى تذوق القارىء .

ولكنا نرى فى القصيدتين ظاهرة أخرى تفرق بينهما ، وهى خلو القصيدة الأولى من الكلام عن غزو المأمون بلاد الروم خلوا تاماً ، فى حين يغمر القصيدة الثانية الحديث عن ذلك الغزو ، ووصف جيش المأمون والاشادة به ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه الظاهرة لنتبين مدلولها ونتعرف تأويلها . ولا يمكن القول بأن مرجع الأمر فى هذا الاختلاف الشديد والتباين البعيد للصدفة ، أو رغبة الشاعر فى أن يفنن ويتخذ فى كل قصيدة مسلكا مختلفاً وفناً على حده . فمثل هذا الكلام لا قيمة له من ناحية الفهم الدقيق للحالات الشعرية . وعندنا أن تأويل ذلك التخالف الشديد بين القصيدتين لا يمكن

(١) الديوان ص ٢١١

فهمه على وجهه الا أن يكون هنالك اختلاف تام بين ظروف كل منهما، لا فى حالة الشاعر الذاتية ، بل فى الحالات الخارجية أيضاً . وليس فى اختلاف الزمان فحسب ، بل ان اختلاف المكان الذى صدرت عنه هذه القصيدة وتلك ، واختلاف الجو السائد هنا وهنالك ، هو ما يجب أن يوضع فى المكان الأول فى تأويل اختلاف القصيدتين على ذلك النحو . والأمر بعد ذلك واضح مسير للفرض الذى افترضناه متسق معه .

ذلك أن أبا تمام كان فى قصيدته الأولى فى مصر . ومصر بعيدة عن بلاد الروم ، من ناحية . لا تقع فى طريقها ، ولا تتصل بها اتصال الشام والجزيرة وما اليهما . ثم هى ، من ناحية أخرى ، مشغولة أشد المشغلة بنفسها ، وبهذه الفتن المتصلة التى تغمرها . ومن ذلك لم يكن غزو الدولة لبلاد الروم يظفر بكبير اهتمامها ، أو يحتل حديثه مكاناً بارزاً فيها . فكان من الطبيعى على ذلك أن يكون أبو تمام خالى الذهن تقريباً من هذه الناحية ، أو هى — على الأقل — لم تبلغ فى تصوره المبلغ الذى يثير شاعريته ، فجاءت قصيدته هذه خالية تماما منها ، فى الوقت الذى عنى فيه بأن يضمنها الاشارة إلى هذه الأحداث التى كانت مصر مضطربة بها ، وإلى بلاء الخليفة وفضله فيها ، إذ «انتاش مصر من الثنيا والتى يتجاوز وتعطف وتغمد» .

وأما القصيدة الثانية فقد صدرت عن هذا المصدر ، وتأثرت بملابسات مختلفة ، فقد كان الشاعر فى بلاد الشام ، أو فى شمالها ، حين قال هذه القصيدة. وهى قريبة من بلاد الروم ، بل هى متصلة بها متاخمة لها ، يمر بها الغزاة — أو قريبا منها — فى ذهابهم إلى الغزو وأوبتهم منه ، وتتجمع فيها جموع الجند فى ثغورها وعواصمها . فلا جرم كانت أصداء الغزو قوية فيها ، كثيرة الترديد بين جنباتها . فكان من الطبيعى أن تتجاوب نفس أبى تمام بهذه الأصداء، وأن تعمر خياله صور الغزو والغزاة ، فتجىء قصيدته التى يقولها فى مدح المأمون ، وهو عائد من هذا الغزو ، متأثرة بذلك كله ، ممثلة له .

وبذلك كان هذا الاختلاف بين القصيدتين . وهو اختلاف كان لابد منه.

وظاهرة ثالثة تفضي بنا إلى مثل هذا التأويل في تفسير هذا الاختلاف، وهي النغمة الشيعية التي تشيع في القصيدة الأولى ، إذ يتغنى بشيعيته ويعتدها من مفاخره ، ويتخذها وسيلة له يتقرب بها إلى الخليفة ، إذ يقول :

ووسيلتي فيها اليك طريفة ... شام يدين بحب آل محمد
نيطت قلائد ظرفه بمحبر ... متمشدق متكوف متبلد (١)
حتى لقد ظن الغواة وباطل ... اني تجسم في روح السيد

كأن الخليفة من صميم الشيعة ، فهو يتخذ من شيعيته وسيلة يتوسل بها إليه . أو كأن الأمر عنده لا يزال كما كان عليه ، حين كانت الدولة ملونة باللون الشيعي ، متجهة إلى تحقيق الأهداف الشيعية . حين جعل الخليفة ولي عهده علي بن موسى الرضا ، رأس الامامية في عصره ، وكأن شيئاً من ذلك لم يتغير . فما معنى أن يكون تأويل هذا الأمر ؟

لاريب أن أبا تمام كان يدين بالتشيع منذ أول عهده بمصر . وبين أيدينا الدليل على هذه الدعوى في قصيدته :

أظبية حيث استنت الكتب العفر ... رويدك لا يغتالك اللوم والزجر (٢)

وقد قالها في أوائل عهده في مصر ، وهو في سن السابعة عشرة ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك . وهي لا تدع لدينا شكاً في أن أبا تمام كان متشيعاً مؤمناً بشيعيته أشد الايمان ، متحمساً لها أشد التحمس، ممتلىء النفس بعقائدها ومأثوراتها ، على النحو الذي نراه فيما يردده في هذه القصيدة من الآراء والمشاهد والأخبار التي يروونها عن علي :

---

(١) يقول التبريزي في شرحه على أبي تمام : «وفي صف نفسه بالتكوف لميله إلى المأمون بأنه شيعي ، لأن المأمون أظهر التشيع في أول أمره . وأهل الكوفة ينسبون إلى أنهم شيعة».

(٢) الديوان ص ١٢٠ .

بأحد وبدر ، حين ماج برجله وفرسانه أحد وماج بهم بدر
ويوم حنين والنضير وخيبر وبالخندق الثاوى بعقوته عمرو
نعما للمنايا الحمر حتى تكشفت واسيافه حمر وأرماحه حمر
ويوم الغدير استوضح الحق أهله بفيحاء لاقيها حجاب ولا ستر

إلى غير ذلك من الصور الشائعة المستفيضة فى أحاديث الشيعة ، يؤديها فى عبارة محكمة رصينة لا يتلجلج فيها ولا يتكلف ولا يتوقف ولا يسف ، حتى لنحسب أسلوبه أكبر من سنه فيها . ولعل ذلك يدلنا دلالة قوية على أنه كان قد اتصل منذ دخل مصر ببيئات الشيعة ومجالسهم اتصالا وثيقاً ، استطاع أن يبهذه المعرفة الشيعية الواسعة ، ويغمر قلبه بذلك الايمان القوى بالتشيع وتلك الحماسة الشديدة له . وقد كان التشيع شائعاً فى مصر ، غالباً على علمائها وكثير من رجال الأدب فيها .

ولكن شيعية أبى تمام ، مهما بلغ من ايمانه بها وتحمسه لها ، لا تفسر لنا تفسيراً سائغاً ذلك المسلك الغريب فى مدح الخليفة ، إذ يواجهه بشيعيته معتزاً بها ، ويتخذ منها شفيعاً يتقدم به اليه ، فقد كانت له عن ذلك مندوحة كثيرة ، الا أن يكون الرجل غافلا حقاً عما جد فى سياسة الدولة منذ عاد المأمون إلى بغداد ، وأخذ يتخلص شيئاً فشيئاً من آثار العهد الخراسانى . وبهذه الغفلة توجه إلى المأمون لابسا لبوس الشيعة حاملا شعارها ، معتقداً انه قد اتخذ لديه خير الوسائل وأوثق الأسباب .

ولكن كيف يغفل أبو تمام هذه الغفلة ؟

إنما يصح ذلك عندنا على اعتبار أن أبا تمام كان فى مصر وقت انشاء هذه القصيدة ، فتمثل هذه الغفلة مفهومة فيها فى تلك الفترة ، إذا قدرنا الاعتبارات التى كانت تكتنفها . فهى — أول شىء — بعيدة عن العراق مركز الدولة وعن الاتصال المباشر به ، ثم هى كانت فى شغل شاغل بكل ذلك الذى كانت تضطرب به ، مما عرفناه من قبل طرفاً منه ، ومما هو جدير أن يصرفها عن

تتبع تلك التطورات والتغيرات التي تتعرض لها سياسة الدولة . وأخرى ترجع إلى غلبة المذهب الشيعي عليها . وقد كانت أحست الغبطة حتى نمى اليها أن الزمان قد انتصف للشيعة ، وان حقهم فى الإمامة قد عاد اليهم — وما كانوا يشكون فى عودته — بذلك الاتجاه الشيعي الخالص الذى اتجهت اليه الدولة. وقد نفذ هذا الخبر إلى ضمائر أهل مصر ، ورأوا فيه تحقيقاً لما كانوا يتوقونه واستقر فى نفوسهم ، واستطاعوا بذلك أن يوفقوا بين عقيدتهم والولاء للدولة القائمة . فقد كان من الصعب بعد ذلك أن تتحول نظرتهم هذه للدولة ، إلا أن يحدث حدث خطير يهز النفوس هزا عنيفاً ويستطيع أن يمحو ما وقر فيها من ذلك . هذه الاعتبارات مجتمعة تجعل مثل تلك الغفلة عن تتبع سياسة الدولة أمراً قريب الفهم يسير التأويل .

وهكذا ظل الأمر فى مصر ، وفى البيئات الشيعية التى كان يعيش فيها أبو تمام خاصة ، مقصوراً على ذلك التصور لسياسة الدولة ، وظلت آفاقها مقفلة على ذلك الادراك ، فلم يكن عجيباً إذن أن يتقدم أبو تمام إلى الخليفة متوسلا بشيعيته وكوفيته ، وأن يفخر أمامه بذلك ، كما كان يقول قبل ذلك فى أوائل عهده بمصر ، فى قصيدته التى عرضنا لها منذ قليل :

وكوفتى دينى ، ولكن منصبى شآم ونجرى اية ذكر النجر

ثم لا يرى بأساً فى أن يذكر «الرضا» فى شعره ، سواء كان المقصود به على بن موسى الرضا أو «الرضا من آل محمد» الذى اعتمدت عليه الدعوة ضد الأمويين ، فيقول :

الله يشهد أن هديك للرضـــا فينا ويلعن كل من لم يشهد

ولا يعلم أن مثل ذلك أصبح موسوماً بسمة الثورة .

والواقع ان مقام أبى تمام فى مصر ، وفى الأوساط الشيعية خاصة ، لم يكن ليتيح له أن يتسع أفقه من الناحية السياسية ، وانما تم له ذلك بعد أن غادر مصر ، واتصل بحقائق الأمور عن كثب ، وجعلت التيارات السياسية

تمر أمام عينيه فى ذلك المزدحم السياسى المفتوح ، فاختفت هذه الشيعية الغريرة ، ولم يعد لها أثر فى قصيدته الأخرى، ولا فى سائر قصائده .

وهكذا نرى أن هذه الظاهرة فى قصيدة أبى تمام الأولى تضيف عاملا جديداً إلى العوامل التى تؤيد الفرض الذى افترضناه أولا ، وهو مصريتها .

وبعد ، فاذا كان ضيق الأفق السياسى الذى كان أبو تمام يعيش فيه فى مصر قد جعله يغفل هذه الغفلة ، فيخطئه التوفيق فيها من ذلك الوجه ، فان الأمر لم يكن مقصوراً على ذلك ، وانما اخطأه التوفيق فيها من ناحية صياغتها الفنية أيضاً ، بالرغم مما يبدو عليها ، فى أكثر أجزائها ، من شدة احتفاله لها وعنايته بها . وربما كان ذلك من أول أسباب سقوطها ، وإخفاقه فيها جعل يستشرف اليه ويتطلع طامعه .

ومهما يكن من أمر ، فان نية الرحيل التى كانت ماتزال تراود أبا تمام ، لم تلبث بعد أن رحل المأمون عن مصر ، ان برزت فى إصرار فلم يعد بد من أن يعد للرحيل أهبته ، ويغادر مصر إلى الشام ، موطنه الأول.

١٥

ولسنا ندرى شيئاً عن ملابسات ترك أبى تمام مصر إلى الشام ، إلا ما رأيناه من ضيقه بها وخيبة آماله فيها . على أن هناك شيئاً جديراً بأن يلفت نظرنا ويجعلنا نمد ذلك النظر قليلا ، وهو أننا حين نلقى أبا تمام فى الشام عقب تركه مصر نراه قد عقد صلته بأبى المغيث موسى بن ابراهيم الرافقى (١) . وكان إذ ذاك متقلداً بعض أعمال الشام ، كما يقول المرزبانى . ولكن أبا المغيث هذا كان فى مصر قبل ذلك . كان فيها فى الوقت الذى كان أبو تمام يفكر

(١) كان فى حاشية عبد الله بن طاهر ، فى خروجه من الجزيرة إلى مصر ، رجل اسمه اسحاق ابن ابراهيم الرافقى (أنظر تاريخ الطبرى ٣ : ١٠ : ٢٧٤) . أفيكون هذا الرجل أخا موسى بن ابراهيم ابى المغيث هذا ؟ إذا صح ذلك كان فيه — فيما نحسب — ما يعين على تصور علاقة أبى تمام به تصوراً أدق وأكمل .

فى تركها ، ويود لو اتيح له الرحيل عنها . وكان يتولى بعض المناصب فيها إذ كان على شرطتها فى أيام ولاية عيسى بن منصور الرافقى ، سنة ٢١٦ . وعيسى بن منصور هذا هو ابن عمه ، كما يقول الكندى . ولكنا لا نلبث حتى نرى مكانه يعظم شيئاً ما فى أبان زيارة المأمون وبسبب منها ، إذ يسخط على ابن عمه عيسى بن منصور ، ويأمر بحل لوائه ، ثم يجعل أبا المغيث خلفاً له ويضم أصحاب عيسى إليه ، ويعقد له على جيش يبعث به إلى الصعيد . ثم لا نعلم ما انتهى اليه أمره بعد ذلك ، إذ تنقطع عنا أخباره ، حتى نراه متوليا بعض أعمال الشام ، ونرى أبا تمام يقصده فى دمشق بالمديح .

فهل لنا أن نفترض هنا أن هذه الصلة التى نراها بين أبى تمام وأبى المغيث فى الشام ، انما نشأت بمصر فى ذلك الوقت ، وأن رحلته إلى الشام كانت ملتبسة ، على نحو ما ، برحلة أبى المغيث اليها ليكون على بعض أعمالها ؟ ذلك فيما نحسب فرض قريب ، وان كنا لا نرى أثراً لهذه الصلة فى شعره الذى نعرف انه قاله فى مصر . ولكنا نعلم علم اليقين ، إلى جانب هذا ، أن ذلك الشعر لم يصل الينا كاملا ، حتى يمكن أن يعتمد عليه فى تبيين ذلك الفرض .